هذا النفاق فاحذروه

هذا الكتاب

تنبيه على أخطر ظاهرة في حياة المسلمين المعاصرة

تصحيح لمفاهيم الناس عن ظاهرة النفاق

عرض متكامل ومترابط لظاهرة النفاق مع ضرب أمثلة من الواقع

محاولة لفهم العمليات النفسية المؤدية إلى الوقوع في النفاق

إثبات أن عامة المسلمين وقعوا في صفات نفاق وهم لا يعلمون

مساعدة على علاج النفس من صفات المنافقين

أيها القارئ...شخص نفسك وعالجها قبل أن....يُضرب السور!

إهداء

إلى أمي وأبي الحبيبين، الذَين أحاطاني دوما بدعائهما ودعمهما ومحبتهما...فأسأل الله تعالى أن يجزيهما عني خير الجزاء وأن يجمعني بهما في الفردوس الأعلى من غير حساب ولا عذاب...رب اغفر لي ولوالدي ولمن استغفر لنا...آمين

فهرس المحتويات

مقدمة تبين أهمية الموضوع 1
حقائق خطيرة عن النفاق يجهلها عامة الناس..... 7
صفات المنافقين..... 17
1) الشك في الدين 18
2) الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم..... 27
3) موالاة اليهود والنصارى والكافرين عموما 35
4) تغيير الولاء بحسب ميزان القوى..... 41
5) الكذب..... 45
6) التخلف عن الجهاد..... 57
7) ثقل العبادات على النفس..... 69
8) محبة أن يُمدح ويُحمد على أشياء لم يفعلها أصلا! 77
9) تثبيط الناس عن الطاعات والاستهزاء بالعاملين..... 79
10) الشك في وعد الله بالنصر والتمكين لهذا الدين:..... 81
11) الحرص على الدنيا والتسخط عند البلاء..... 89
12) الجبن والقبول بعيشة الذل..... 97
13) مداهنة السلاطين..... 103
14) قلة الأدب مع الله ومع رسوله..... 105
15) بغض المؤمنين وتشويه سمعتهم 109
16) ابتغاء الفتنة..... 113
17) قسوة القلب تجاه القرآن..... 117
18) استصغار المعصية واستعظام الطاعة 121
19) الإعراض عن التوبة..... 125
20) تعريض النفس للفتن..... 127
21) الفجور عند الخصومة 129
22) إخلاف عهد الله 131
23) اللحن في القول..... 133
24) نسيان الله تعالى 135
خاتمة 137

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. أما بعد:

فإني لا أرى الحديث عن المنافقين يعطَى في زماننا حقه في الخطب والمواعظ والمؤلفات على خطورته البالغة وغفلة الناس الشديدة عنه، وامتلاء القرآن والسنة بزخم كبير من هذا الموضوع. لذا رأيت أن أستعين بالله تعالى على أن أجمع صفات المنافقين في هذا الكتاب، آملا أن يكون مادة يتدارسها الحريصون على سلامة إيمانهم وينشرونها فيما بينهم عساه إن شاء الله تعالى يسهم في التنبيه على خطورة النفاق والمنافقين.

وقد قسمت الكتاب إلى مقدمة تبين أهمية الموضوع، ثم مفاهيم هامة عن طبيعة النفاق، مَتْلُوَّةً بصفات المنافقين، وتحت كل صفة العناصر الآتية:

-الآيات والأحاديث التي تشير إلى هذه الصفة.

-أمثلة من واقعنا تجسد الصفة.

-آيات وأحاديث تبين الصفة المقابلة التي ارتضاها الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم للمؤمن في مقابلة الصفة النفاقية المذكورة.

وذلك، بإذن الله تعالى، دون اختصار مخل ولا تطويل ممل.

مقدمة تبين أهمية الموضوع

كثرة المنافقين:

قال ابن القيم في المنافقين: (كاد القرآن أن يكون كله في شأنهم، لكثـــرتهم على ظهر الأرض، وفي أجواف القبور، فلا خلت بقاع الأرض منـــهم، لـــئلا يستوحش المؤمنون في الطرقات، وتتعطل بهم أســـباب المعـــايش، وتخطفهـــم الوحوش والسباع في الفلوات)[1].

كثرة الآيات المتعلقة بالمنافقين:

ولكثرة المنافقين وشدة خطرهم فصَّل الله تعالى صفاتهم في سور مدنية كثيرة. فلا ينبغي أن يُظن أن ظاهرة المنافقين قد انقرضت.

ألم تر أن الله تعالى بين مرض قلبهم ومخادعتهم للمؤمنين في سورة البقـــرة، ثم جزعهم وتخذيلهم في آل عمران، ثم إعراضهم عن حكم الله ورسوله في النـــساء، ثم موالاتهم الكفار في المائدة، ثم شكهم في وعد الله بالتمكين للدين في الأنفال، ثم نكوصهم عن الجهاد والطعن في المؤمنين في التوبة، ثم قلـــة ثبـــاتهم في الحـــج، ثم انتقاءهم من الدين بأهوائهم في النور، ثم قلة صبرهم في العنكبوت، ثم إخلافهـــم عهد الله في الأحزاب، ثم جبنهم في سورة محمد، ثم سوء ظنهم بالله في الفـــتح، ثم اغترارهم بالأماني في الحديد، ثم حلفهم كذبا في المجادلة، ثم خذلانهم لمن ضعُف من أوليائهم في الحشر، ثم قلة أدبهم مع رســـول الله والمـــؤمنين في "المنـــافقون"، ثم استحقاقهم الغلظة في سورة التحريم...سبع عشرة سورة مليئة بالتحـــذير منـــهم وبالتفصيل في صفاتهم...

---

[1] (مدارج السالكين، جزء 1، ص 358)

أيُظن بعد هذا كله أن الآيات التي تصفهم لم يعد لها أهمية في عصرنا إلا التبرك بتلاوتها وتدوين هذه الظاهرة تاريخيا!

خطورة النفاق والمنافقين:

فلا شك إذن أن الله تعالى قد أكثر من ذكر النفاق لنكون على بينة منه، فنحذر من النفاق في ذوات أنفسنا ونحذر من المنافقين.

. قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (الأنعام)

خطر النفاق على النفس:

اللحظة الحاسمة...هي تلك التي يعرف فيها المنافق أنه هالك...استفاق من حلم الخلود في نعيم الجنة إلى يقين الخلود في عذاب النار...لحظة رهيبة يخاف منها كل مؤمن... مر المؤمنون عبر محطات التنقية فتمايزوا عن الكفار الصرحاء، لكن ما زال في صفوفهم منافقون...والمنافق تتعاظم أمانيه في النجاة ولم يبق للجنة إلا خطوات...خطوات تحتاج نورا لإبصار الطريق...لكن المؤمنين تقدموا بنورهم تاركين المنافقين في ظلمات كظلمات نفاقهم وشكهم في الدنيا...وما زال لديهم أماني...بعضهم لا يعلم أن ما كان عليه هو النفاق، وبعضهم يظن أنه ينجو بما نجا به في الدنيا من كذب وخداع...ظن أن حيلته تنطلي حتى على ربه عز وجل...فينادي المنافق كما يصف رب العزة سبحانه وتعالى:

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحديد) ...

خادعوا الله تعالى طويلا فخدعهم ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ (النساء-142)... عادوا يلتمسون نورا يصلون به إلى النعيم المقيم فضُرب السور ليفصلهم عن المؤمنين الذين يتابعون المسير إلى الجنة ...أما المنافقون فحُبسوا وراء السور...وهووا في عذاب الجحيم!...لحظة فاصلة مرعبة مهولة!...[1]

فاسأل نفسك يا أخي: هل سأكون قبل السور أم بعده عند هذه اللحظة...تصور نفسك وقد ضرب السور من خلفك فعلمت أنك مؤمن ناج...فتجثو على ركبتيك وتبكي مطأطئا رأسك من شدة الفرح والامتنان لله تعالى أن شملك برحمته...

أم يا ترى يُضرب السور أمامك فتوضع الأغلال في عنقك وتسحب بالسلاسل إلى نار جهنم...إلى قعرها ودركها الأسفل:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ (النساء-145)...فاللهم ارزقنا الأولى[2].

الحذر من المنافقين:

قال ابن القيم: (فإن بلية الإسلام بهم (بالمنافقين) شديدة جدا لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة، يُخرجون عداوته في كل قالب يظن الجاهل أنه عِلْمٌ وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد. فللّه كم من معقل للإسلام قد هدموه! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه! وكم من علم له قد طمسوه! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه! وكم ضربوا بمعاول الشُّبَه في أصول غراسه ليقلعوها! وكم عَمَّوا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها! فلا

[1] أية إشارة إلى ضرب السور في هذا الكتاب فإنها تعني هذا السور الذي سيفصل بين المؤمنين والمنافقين عند تمايزهم

[2] اقرأ الآيات **12-16** من سورة الحديد وتَدَبَّرْها

يزال الإسلام وأهله منهم فى محنة وبلية. ولا يزال يطرقه من شُبَهِهِم سريةٌ بعد سرية. ويزعمون أنهم بذلك مصلحون! ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)[1]

ولخطورتهم قال الله تعالى: ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (المنافقون)... فحصر العداوة فيهم كأنْ لا عدو غيرهم لأنهم شر الأعداء.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم:

((إن أخوف ما أخاف على أمتي من بعدي منافق عليم اللسان))[2]... فالمنافق عليم اللسان يُقبح الحق ويُجمِّل الباطل ببيانه...وقد يَستدل في مسعاه الخبيث هذا بقال الله وقال رسوله...حاملا النصوص على غير محملها. وهذا معنى قول ابن القيم (وكم عموا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها) فالمنافق الملسن يحاول دفن الحقيقة ونصر آرائه السقيمة مستخدما في ذلك بلاغته وخلطه للأمور تعمية على الناس.

ولخطورتهم أمرنا الله تعالى أن نتخذ منهم موقفا واضحا حازما...

فلم يرض من المؤمنين أن ينقسموا في شأنهم فئتين... فَتَلين فئة في شأنهم...

﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا۟ ﴾ (النساء)

وإنما أحب للمؤمنين أن يجتمعوا على جهاد المنافقين والغلظة عليهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ (التحريم)

ونفى النبي صلى الله عليه وسلم الإيمان عمن لم يجاهدهم فقال:

((ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خُلُوف يقولون ما لا يفعلون،

---

[1] مدارج السالكين–الجزء الأول ص347–348

[2] صححه الهيثمي في المجمع وقال: رواه الطبراني في الكبير والبزار ورجاله رجال الصحيح (187/1) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة وقال : إسناده صحيح (87/3) .

ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل))[1] .

ونهى الله تعالى نبيه والمسلمين عن طاعة المنافقين:

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ (الأحزاب)...

من ذلك جميعا يُعلم مدى ضرورة التعرف على صفات المنافقين لنتوقاها في ذوات أنفسنا ولنعرف بها أئمة النفاق ولئلا نطيعهم...

ولئلا ننخدع بهم فصل الله تعالى لنا صفاتهم...حتى إذا ما حاولوا خداعنا كان ردنا عليهم:

﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ (التوبة)

والمتتبع للتاريخ الإسلامي يرى أن كل بلية نزلت بالإسلام إنما هي من جهتهم...سَوَّدوا صفحات التاريخ سَوَّد الله وجوههم...

فمن جرثومة الشر[2] عبد الله بن أبي بن سلول الذي طالما أدخل الحزن على الحبيب رسول الله وجنى على خلق كثيرين من أتباعه...فبدل أن يكونوا صحابة في عليين هوى بهم إلى الدرك الأسفل في الدنيا والآخرة ملاعين.

إلى عبد الله بن سبأ...الساعي بخبثه بين الصحابة الأخيار حتى أوقع الفتنة بين بعضهم...وكان قدوةَ سوء لمن جمعوا زي الإسلام على قلوب المجوس فأذاقوا وما زالوا يذيقون أمة الإسلام ألوان العذاب.

إلى بعض الأمراء أيام الصليبيين وفي عهد ملوك الطوائف بالأندلس...من تلبسوا بصفات المنافقين فحادوا عن حكم الله ووالوا أعداء الله وكذبوا على رعيتهم

---

[1] صحيح مسلم 71 (1/ 168)

[2] أخذت هذه التسمية من شريط (حروف تجر الحتوف) للشيخ علي القرني

وعطلوا الجهاد في سبيل الله...فذلت الأمة على أيديهم وتمزقت وأريــق دمهــا وسُبِيَت...

إلى "محمد بن محمد مؤيد الدين" ابن العلقمي...الذي خان محمدا صلى الله عليــه وسلم في أمة محمد، وأيد التتر ومرق من الدين، وأذاق المسلمين العلقم...

إلى "محمد بن محمد نصير الدين" الطوسي...ويا ليت المسلمين يكفون عن الاغترار بالظواهر، فلا يُذهب غيظ قلوبهم على المنافقين أن يسمعوا لهم أسماء إســلامية... فتحسن بهم الظنون وتلين لهم القلوب...وليس المنافقون لذلك بأهل...فــالأول عبد الله، والثاني عبد الله، والثالث والرابع محمد...لا محمد فحسب، بل محمد بن محمد! وكلهم عدو لله تعالى ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلم...

إلى جمعيات النفاق التي أوهنت الدولة العثمانية...فكانت الثمرة إلغــاء الخلافــة وجعل المسلمين أيتاما على موائد اللئام.

وفي كل ساحة جهاد قديمة وحديثة...نرى من المجاهدين صــنوف البطولــة والثبات...ويكادون يقطفون ثمرة النــصر علــى الــرغم مــن قلــة عــددهم وعُددهم...فتمتد يد الغــدر النفاقيــة لتطعنــهم في ظهــورهم، وتُقــر أعــين الكافرين..."فالكفر الظاهر على خطره وضرره يعجز في كل مرة يواجه فيها أمة الإسلام أن ينفرد بإحراز انتصار شامل عليها ما لم يكن مسنوداً بطابور خامس من داخل أوطان المسلمين ويتسمى بأسماء المسلمين، يمد الأعداء بالعون، ويخلص لهم في النصيحة، ويزيل من أمامهم العقبات، ويفتح الأبواب"[1]...رأينا ونرى مصداق ذلك في أيامنا هذه في الشيشان وأفغانستان والعراق وفلــسطين وفي كــل أرض للمسلمين...فما كان اليهود ولا الصليبيون ليحققوا معشار مــا حققــوه لــولا المنافقون.

[1] من شريط (رايات النفاق) للداعية ناصر الأحمد وفقه الله تعالى

حقائق خطيرة عن النفاق يجهلها عامة الناس

إنه ثمة حقائق لا بد من معرفتها لئلا تمر حالة مـــن حـــالات النفـــاق دون تشخيص. فالمرء قد يرى في نفسه خيرا ينكر لأجله أن عنده نفاقا، وما ذلـــك إلا لجهله أن النفاق يتجزأ وليس على درجة واحدة. وقد تمر به أيام يقوى فيها إيمانه فيستبعد لأجلها أن ما يتلبس به في أيام أخرى هو صفات نفاقية، وما ذلـــك إلا لجهله أن المرء قد يتقلب بين الإيمان والنفاق. وقد يطمئن إلى إرادته الخير ويحسب أن لو كان منافقا لعَلِم من نفسه النفاق. وما ذلك إلا لجهله أن المرء قد يكـــون منافقا من حيث لا يعلم، إلى حد أن الصحابة خافوا على أن أنفسهم أن يكـــون فيهم نفاق لا يعلمونه لشدة خفائه.

وعامة الناس يتصورون أن النفاق إنما يكون من شخص لا خير فيه البتة، وليس في قلبه ذرة إيمان، و يُبَيِّت للإسلام عداوة وبغضاء يخشى اطلاع الناس عليهما.

وحقيقة الأمر أن المنافقين الذين هذا حالهم قلة. لذا فالنفاق الذي هو أقـــل حدة ووضوحا أخطر لكثرة انتشاره وخفائه حتى على أصحابه في أكثر الأحيان. فهم لا يرون آيات النفاق تتحدث عنهم.

ولأجل ذلك كله أحببنا أن نوضح حقائق عامة عن النفاق قبل الخوض في صفات النفاق تفصيلا. وهذه الحقائق هي:

1) النفاق يتجزأ وليس على درجة واحدة.
2) قد يتقلب المرء بين الإيمان والنفاق.
3) قد يكون المرء منافقا من حيث لا يعلم.
4) خاف الصحابة النفاق لشدة خفائه.

1) النفاق يتجزأ وليس على درجة واحدة:

وقد يجمع المرء بين نفاق وإيمان.

ا) ولذا قال الله تعالى واصفا موقف المنافقين يوم أحد:

﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ (آل عمران)...قال ابن كثير: استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال، فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان[1].

فانظر كيف أن الله تعالى قد جعل الإيمان في هذه الآية في طرف والكفر في طرف آخر. والمنافقون–في يوم أحد–كانوا بين الطرفين لكنهم كانوا إلى الكفر أقرب. وقد تقلبت ببعضهم الأحوال قبل وبعد أُحُد فكانوا تارة إلى الإيمان أقرب وتارة إلى الكفر أقرب.

–قال ابن تيمية في قوله تعالى: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾:

(فقد جعل هؤلاء إلى الكفر أقرب منهم للإيمان فعُلم أنهم مخلطون وكفرهم أقوى، وغيرهم يكون مخلطا وإيمانه أقوى...فبيَّن سبحانه وتعالى أن الشخص الواحد قد يكون فيه قسط من ولاية الله بحسب إيمانه وقد يكون فيه قسط من عداوة الله بحسب كفره ونفاقه)[2] .

ب) قول النبي صلى الله عليه وسلم:

((أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها))[3].

---

[1] أحب أن أبين بداية أنَّ ذِكر تفاسير بعض العلماء في هذا الكتاب لا يعني أننا نَحمل الآيات على فهمهم دون غيرهم...فأكثر الآيات في الكتاب واضحة الدلالة والحمد لله ولا تحتمل كثير اختلاف. وإنما أذكر أقوال العلماء أحيانا ليعلم قارئنا أننا لا نأتي بما يخالف منهج أهل السنة

[2] أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية–الجزء الأول ص23

[3] صحيح البخاري ح33 (1/ 59) ، صحيح مسلم ح88 (1/ 190)

فانظر كيف أنه عليه الصلاة والسلام قد بين أن المرء قد يتلبس بصفات تجعل فيه شيئا من نفاق مع أنه ليس بمنافق خالص.

وينبغي أن نذكر أن بعض شراح هذا الحديث استشكلوا هذا الحديث من حيث أن هذه الخصال قد توجد في المسلم المصدق بقلبه ولسانه والإجماع حاصل أنه لا يُحكم له بنفاق يجعله في الدرك الأسفل من النار لهذه الصفات. وخرجوا من هذا الإشكال بتأويلات كاعتبار النفاق المذكور نفاقا عمليا لا اعتقاديا، وأنه ليس نفاقا مخرجا من الملة.

غير أننا في هذا الكتاب لا نتعرض لهذا التفريق بين النفاق الاعتقادي والنفاق العملي لأن هذا التفريق إنما يحسن ذكره لمنع المسلمين من الوقوع في الإفراط بتكفير من تلبس بشيء من هذه الصفات. ونحن في هذا الكتاب لسنا نتصدر للحكم على من تلبس بصفة نفاق بالكفر أو الإيمان الحكمي أو الحقيقي، فهذا مبحث يحتاج إلى مزيد علم وبحث. إنما نحن هنا معنيون بالزجر عن صفات النفاق، فيحسن في مثل هذا المقام أن نطلق النفاق كما أطلقه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ليكون الزجر كما أريد له، ولئلا تركن النفوس وتَقِلَّ نُفرتُها عن صفات المنافقين إن قيل إنَّ هذه الصفة أو تلك نفاق عملي ولا يخرج من الملة.

ج) روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح. فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن سراجه فيه نوره، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق عَرف ثم أنكر، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، فمثل الإيمان فيه كمثل

البقلة يمدها الماء الطيب، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم، فأي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه))[1].

فانظر كيف أنه عليه الصلاة والسلام فرَّق بين المنافق الخالص وصاحب القلب الذي جمع إيمانا ونفاقا يتغالبان.

ولذا قال ابن كثير في تفسير أوائل سورة البقرة: (...ومنافقون، وهم قسمان: خُلَّص، وهم المضروب لهم المثل الناري، ومنافقون يترددون، تارة يظهر لهم لمع الإيمان وتارة يخبو، وهم أصحاب المثل المائي، وهم أخف حالا من الذين قبلهم).

ويقصد بالمثل الناري قوله تعالى ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ (البقرة-17)

...والمثل المائي قوله تعالى ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾... ويقصد بقوله: تارة يظهر لهم لمع الإيمان قوله تعالى:

﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ﴾ [2]...

وهذا الصنف المتردد نراه في واقعنا من أناس يتكلمون بكلام المتشككين في شرائع من شرائع الإسلام كتعدد الزوجات والحدود وميراث المرأة. لكنهم إن أَوقع أعداء الإسلام بالأمة ظلما جديدا أحسوا بأنهم مستهدفون وزاد تمايز الحق عندهم من الباطل فقوي إيمانهم وأظهروا على الدين غيرة. لكنهم ما يلبثون أن يعودوا إلى ما كانوا فيه من تشكك وريبة.

---

[1] قال ابن كثير في إسناده: وهذا إسناد جيد حسن

[2] راجع الآيات 17-20 من سورة البقرة

انتبه!النص القرآني يخاطبك:

فههنا تنبيه: وهو أنه ليس شرطا أن ينطبق النص في المنافقين بكامل جزئياته على أحدنا حتى يشعر أنه يخاطبه. وبالتالي فإذا قرأ قارئ آياتٍ تصف المنافقين وأحس بداية بانطباق الصفات عليه ثم جاءت صفة في الآيات لا تنطبق فلا ينبغي أن يشعره ذلك أن الآيات لا تعنيه. بل له من الوعيد ومن تحقق اسم النفاق فيه بقدر انطباق الآيات عليه، وله من الإيمان بقدر مخالفتها لحاله.

تجد مثل هذا الفهم في تعامل الصحابة مع الآيات التي تصف الكفار. ففي الحديث الذي رواه الحاكم وقال فيه الذهبي في التلخيص (على شرط البخاري ومسلم) أن سعدا رضي الله عنه استأذن على ابن عامر و تحته مرافق من حرير، فأمر بها فرُفعت، فدخل عليه و عليه مطرف خز، فقال له: استأذنتَ علي و تحتي مرافق من حرير فأمرتُ فرُفعت. فقال له: نِعم الرجل أنت يا ابن عامر إن لم تكن ممن قال الله عز و جل : ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا ﴾ (الأحقاف)... واللهِ لأن أضطجع على جمر الغضا أحب إلي من أن اضطجع عليها.

فانظر كيف أن هذه الآية أُنزلت في الكفار ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الأحقاف)... لكن ذلك لم يمنع سعدا رضي الله عنه من زجر ابن عامر بها لمشابهة في جزئية من الآية مع أن ابن عامر ليس من (الذين كفروا).

وكذلك إيراد أهل السنة لقوله تعالى ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (المدثر)...في معرض ترهيب المنتسبين إلى الإسلام عن ترك الصلاة، مع أن تتمة الصفات المذكورة في مجموعة هذه الآيات:

﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ ﴾، وهي صفة لا تنطبق على كثير من تاركي الصلاة.

2) قد يتقلب المرء بين الإيمان والنفاق:

فكما أن الإيمان يزيد وينقص–وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة– فكذلك النفاق يزيد وينقص.

ا) فقد وصف الله تعالى المنافقين بقوله:

﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾(النساء)...قال ابن كثير في تفسيرها:

(ومنهم من يعتريه الشك، فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك) اهـ.

وميل المنافق إلى المؤمنين إما أن يكون عن زيادة طارئة في إيمانه أو لغلبة دنيوية في صراع المؤمنين مع الكفار والله تعالى أعلم.

ب) عن جبير بن نفير أنه سمع أبا الدرداء –وهو في آخر صلاته وقد فرغ من التشهد– يتعوذ بالله من النفاق فأكثر التعوذ منه. فقال جبير: ومالك يا أبا الدرداء أنت والنفاق؟ فقال:

(دعنا عنك دعنا عنك. فوالله إن الرجل ليُقلب عن دينه في الساعة الواحدة فيُخلع منه)[1].

3) قد يكون المرء منافقا وهو لا يعلم:

ا) قال الله تعالى واصفا المنافقين:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ (التوبة)...

[1] قال الذهبي في سير أعلام النبلاء: إسناده صحيح

قال ابن تيمية في تأويلها:

(فدل على أنهم لم يكونوا عند أنفسهم قد أتوا كفرا بل ظنوا أن ذلك ليس بكفر. فبين أن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر يَكفر به صاحبه بعد إيمانه، فدل على أنه كان عندهم إيمان ضعيف ففعلوا هذا المحرم الذي عرفوا أنه محرم، ولكن لم يظنوه كفرا، وكان كفرا كفروا به)[1].

ب) في البخاري: باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر

ج) قال ابن القيم: (وأما النفاق: فالداء العضال الباطن الذى يكون الرجل ممتلئا منه وهو لا يشعر)[2]

فكما أن مريض الفم لا يحسن التذوق فإن هؤلاء مرضى القلوب فيرون الفساد صلاحا:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (البقرة)

د) والآيات الدالة على ان المرء قد يسيء وهو يحسب أنه محسن كثيرة، كقوله تعالى:

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الزخرف)

وكقوله تعالى:

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ (فاطر–٨)

---

[1] مجموع الفتاوى–الجزء السابع ص220. وفيه مبحث قيم للتدليل على صحة ما ذهب إليه فراجعه

[2] مدارج السالكين–الجزء الأول ص347

هـ) قوله صلى الله عليه وسلم: ((آية المنافق ثلاث وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم))[1] . فبعض من (زعم أنه مسلم) قد يُصدق زعمه هذا لما يرى من صلاة نفسه وصيامها ولا يشعر بنفاقه.

4) خاف الصحابة والتابعون على أنفسهم من النفاق:

ا) فقد روى البخاري عن ابن أبي مليكة، وهو من التابعين، أنه قال: (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، كلهم يخاف النفاق على نفسه).

ب) قال عمر لحذيفة (أمين سر رسول الله صلى الله عليه وسلم): ناشدتك بالله هل سماني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم (في المنافقين)؟ فقال: لا، ولا أزكي بعدك أحداً[2] .

عند سماع هذه الآثار فإننا نقف عادة عند الإعجاب بورع الصحابة واعتبار أنهم كانوا يخافون النفاق (زيادة عن اللزوم). لكن ليس هذا ما ينبغي أن يفهم منها. فالصحابة أفقه الأمة، وهم بالتالي يعطون الأمور أوزانها المناسبة ويخافون مما يجب الخوف منه. فخوفهم هذا يُشعر بخفاء النفاق إلى الحد الذي يمكن معه أن يوجد في النفس ولا يشعر به صاحبه. فجدير بهم أن يخافوه وجدير بنا كذلك. فكلما زاد إيمان المرء وفقهه بطبيعة النفاق زاد خوفه منه.

ج) يُذكر عن الحسن البصري أنه قال: (ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق)[3] أي: ما خاف النفاق إلا مؤمن ولا أمن النفاق إلا منافق.

د) من أقوال أئمة التابعين رحمهم الله تعالى:

---

[1] مسلم ح90 (192/1)

[2] البخاري

[3] البخاري، باب خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر (83/1)

(قال ابن سيرين: ما في القرآن آية أخوف عندي من هذه ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (البقرة)...وقال أيوب (أي: السختياني): كل آية في القرآن فيها ذكر النفاق أخافها على نفسي، وقال معاوية بن قرة: كان عمر يخشاه وآمنه أنا؟)[1]

فهذه حقائق أربعة عن طبيعة النفاق أحببت أن أقدم بها بين يدي الحديث عن صفات المنافقين

[1] فتح الباري لابن رجب

صفات المنافقين

1) الشك في الدين
2) الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم
3) موالاة اليهود والنصارى والكافرين عموما
4) تغيير الولاء بحسب ميزان القوى
5) الكذب
6) التخلف عن الجهاد
7) ثقل العبادات على النفس
8) محبة أن يُمدح ويُحمد على أشياء لم يفعلها أصلا!
9) تثبيط الناس عن الطاعات والاستهزاء بالعاملين
10) الشك في وعد الله بالنصر والتمكين لهذا الدين
11) الحرص على الدنيا والتسخط عند البلاء
12) الجبن والقبول بعيشة الذل
13) مداهنة السلاطين
14) قلة الأدب مع الله ومع رسوله
15) بُغض المؤمنين وتشويه سمعتهم
16) ابتغاء الفتنة
17) قسوة القلب تجاه القرآن
18) استصغار المعصية واستعظام الطاعة
19) الإعراض عن التوبة
20) تعريض النفس للفتن
21) الفجور عند الخصومة
22) إخلاف العهد مع الله
23) اللحن في القول
24) نسيان الله تعالى

1) الشك في الدين

فالمنافق قد يشك في وجود الله أو في نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أو في صلاحية الإسلام للحياة. والعَلمانيون في أيامنا يعبرون عن شكوكهم هذه.

وصفة الشك أهم صفات النفاق لأنها أصل كل شر، وهي سبب الصفات النفاقية الأخرى كما سترى.

الدليل على أن المنافق يشك في الدين:

قال الله تعالى واصفا المنافقين: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ (البقرة)... نقل ابن كثير عن عدد من الصحابة في معنى كلمة (مرض) أنه الشك.

وقال تعالى في آية السور المضروب بين المنافقين والمؤمنين: ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ ﴾ (الحديد)... فريبهم شكهم.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم موضحا خطورة هذا الشك: ((وثلاثة لا تسأل عنهم: رجل نازع الله عز وجل رداءه فإن رداءه الكبرياء وإزاره عِزَّهُ، ورجل شك في أمر الله، والقنوط من رحمة الله)) [1]. وقوله ((لا تسأل عنهم)) يوضح أنهم هلكى.

هذا الشك (الريب) سبب الصفات الأخرى كلها:

فالمنافقون لشكهم:

- رفضوا مرجعية الشريعة: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ ﴾ (النور)

[1] صححه الألباني في صحيح الأدب المفرد و في السلسلة الصحيحة (41/2).

– نكصوا عن الجهاد: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (التوبة)

– والَوُا الكفـــار: ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ (المائدة)

– تكاسلوا عن الطاعات: قال عليه الصلاة والسلام: ((ولو يعلمون ما فيهمـــا– أي: صلاتي الفجر والعشاء في المسجد– لأتوهما ولو حبوا)) [1] لكن لـــشكهم في وجود هذا الجزاء أصلا تكاسلوا.

الشك يجعل حسابات المنافق أرضية:

فشكه يُضعف عنده التوكل على الله وانتظار المثوبة والعقوبة الأخرويين فيغش و يرتشي ويفعل ما يرى فيه أمانا لحياته حَلَّ أم حَرُم.

سيقول قائل: فما ذنب المنافق إذن؟

إن الناس لا يجدون صعوبة في الاقتناع بأن منكِر الإسلام وجاحـــده كـــبرا يستحق العقوبة. لكن الكثيرين يتساءلون: إن كان إنسان قد استعرض الإســـلام وفكر فيه فلم يقتنع بوجود الله تعالى أو نبوة رسوله صلى الله عليه وسلم مع أنه حاول أن يكون منصفا، أو شك في صحة هذا الدين، فما ذنبه؟

والجواب عن ذلك أن الله تعالى قد أعطى كل إنـــسان قلبـــا ســـليما لا بـــد أن يستحسن الإسلام. فأي قلب سليم لا يحب قرآنا فيه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (النحل)

[1] البخاري ومسلم

وأي قلب سليم لا يحب قرآنا فيه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ (النساء-٥٨)

فالقلب الذي لا يقتنع بدين الله تعالى قلب مريض أفسده صاحبه بالمعاصي، كما تفسد الحواس بتعريضها لما يؤذيها:

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

فالعيب ليس في دين الله ولا عن نقص حجة فيه:

﴿ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ ﴾ (الأنعام)

والله تعالى قد فطر الناس جميعا على الانجذاب لدينه: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدۡنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (الأعراف)

إنما العيب في القلب الذي يستقبح دين الله ولا يقتنع به.

مرض القلب ناتج عن المعاصي:

فمرض القلب إذن مكتَسَب بالمعاصي. والأدلة على ذلك في القرآن والسنة كثيرة جدا منها قول الله تعالى:

﴿ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ (النساء-٨٨)...أي ردهم وأوقعهم في الخطأ والكفر بسبب معاصيهم. وقوله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (المنافقون)...فالكفر أكبر المعاصي...قادهم إلى مرض قلوبهم بالطبع عليها...

وقولـــه تعـــالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (آل عمران)

يوضح الله الحق للإنسان ويدركه الإنسان ولو لفترة قصيرة. لكن الإنـــسان إذا تعامى وآثر الدنيا وحظوظ النفس أو استكبر مَرِض قلبه فنسي هـــذا الـــيقين الذي تبدى له. يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ (الأنعام)...

فليحذر المرءُ أن يتعامى عن حق ذاق طعمه لحظةً، وإلا فقد ينساه بقية حياته.

ومن الأدلة على أن مرض القلب مكتَسَب بالمعاصي قول الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾(الصف-٥) ...وقوله تعالى:

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ (الجاثية-٢٣)... وقوله تعالى:

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ (التوبة-١١٠)

...أي أن بناء المنافقين لمسجد الضرار أورثهم شكا ونفاقا في قلوبهم. ولهذا فعلى المرء أن يحذر من فعل معصية قد تزيد مرض قلبه وشكه ما دامت آثارها قائمة مع أن صاحبها قد يكون نسيها فلا ينتبه إلى هذا المصدر من مصادر مرض قلبه، كمن يكتب كتابا مثلا، يرفع فيه أقدار أقوام لا خلاق لهم، أو يُثني فيه علـــى مبـــادئ مخالفة لدين الله تعالى، وينشر هذا الكتاب...أو يُعلق -بحجة الدعاية- صـــورة لا أخلاقية تفتن شباب المسلمين...فكل منهما عرضة لأنْ تعمل معصيته في قلبه أثر سوء من شك ونفاق ما دامت آثارها باقية...ما دام الكتاب منتشرا والـــصورة معلقة...حتى ولو نسي صاحبها أنه قام بهذه "السيئة الجارية"...فَلْيحذر العاقلون!

ومن أدلة السنة النبوية على أن المعاصي تورث مرض القلب وبالتالي الشك في الدين قول النبي صلى الله عليه وسلم:

((من سمع النداء يوم الجمعة فلم يأتها، ثم سمعه فلم يأتها، ثم سمعه فلم يأتها، طبع الله على قلبه وجعل قلبه قلب منافق))[1] .

وهناك أحاديث أخرى كثيرة بالمعنى ذاته [2].

وهذه الآيات والأحاديث تدل على أن فتنة الشهوة تقود إلى فتنة الشبهة، وأن المعاصي تخدش العقيدة. فلا يغترن امرؤ بقوله أنه وإن كان مقيما على معصية إلا أن إيمانه في قلبه كامل. ومن ظن أن بإمكانه الإسراف على نفسه من المعاصي دون أن يتأثر إيمانه بأدرانها فقد وقع بظنه هذا في كبيرة جديدة، وهي الأمن من مكر الله تعالى القائل:

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (النور)

وشر فتنة أن تمرض قلوبهم لمخالفتهم أمر الله ورسوله فيصيبها كفر أو نفاق.

فالأمن من مكر الله هو: أن تعمل السيئات وأنت لا تخاف على نفسك أن يعاقبك الله عليها في الدنيا أو الآخرة، ولا من أن يطمس الله على قلبك بشؤم هذه المعصية، كمن ترك عينيه ترتعان فيما حرم الله وهو يقول: هذا لن يؤثر على إيماني في قلبي. ومثل هذا قد انطبق عليه قول ابن مسعود رضي الله عنه: (الكبائر: الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله)[3]

---

[1] أخرجه أبو يعلى والبيهقي وقال ابن حجر: رجاله ثقات، وصححه ابن المنذر وحسنه الألباني

[2] راجع حديث ((تعرض الفتن على القلوب كالحصير)) في صحيح مسلم–كتاب الإيمان برقم 386، وحديث ((نُكتت فيه نكتة سوداء)) في سنن الترمذي–كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم برقم 3654

[3] صحح إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد

فمحصل المسألة أن المعصية تقود إلى مرض القلب، والذي بدوره يقود إلى الشك في الدين، والشك بدوره يقود إلى الصفات النفاقية الأخرى.

وسنبرهن على هذا التسلسل في مواضع كثيرة إن شاء الله تعالى.

كيف تقود المعصية إلى مرض القلب والشك في الدين؟

إن العاصي يُحَجِّم نداء الإيمان في قلبه ثلاث مرات: قبل ممارسة المعصية ليُقبل على المعصية، ثم أثناء ممارستها ليستمتع بها، ثم بعد الانتهاء منها ليتهرب من الندم على فعلها. عملية "التحجيم" هذه إذا كَثُرت قمعت إيمان قلبه وأورثت فيه مرضا وشكا.

كما أن العاصي إذا تأخرت عقوبته قد يحمد الله تعالى على لطفه بداية. لكن إن واقع معصيته مرارا ولم ير عقوبة فقد يشك في وجود الثواب والعقاب أصلا.

ألا ترى أن الطفل إن أقدم على ما زُجر عنه فلم ير ضررا عاجلا اجترأ عليه، ثم بدأ يشك في ترتب الضرر على هذا الفعل أصلا؟

ولهذا لما اجترأ يهود على الدعاء على النبي صلى الله عليه وسلم بقولهم (السام عليك) ولم يُعاجلوا بعقوبة شكوا في نبوته بعدما كانوا متيقنين منها:

﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَاۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ (المجادلة)

أي: يقولون في أنفسهم لو كان هذا نبيا لعذبنا الله بما نقول له.

في المقابل تقود الطاعة إلى اليقين:

فصاحب الطاعة يستجمع إيمانه ليدفعه إلى فعل الطاعة قبل فعلها ثم ليستمر عليها أثناء أدائها ثم ليفرح بها بعد الانتهاء منها.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ ﴾ (البقرة-٢٦٥)

فالإنفاق يُثَبِّتهم على الإيمان.

وقال تعالى:

﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ﴿٦٦﴾ ﴾ (النساء)

وفي الحالين، في حال المؤمن والمنافق، يسكب الله الإيمان في قلب من شاء ويضل من شاء سبحانه. فشيء من زيادة الهدى والضلال قد نفهم سببه وعمليته النفسية، لكن الهدى والإضلال بيد الله تعالى أولا وآخرا:

﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الأنبياء)

فإذا عُلم الارتباط بين المعصية والشك في الدين ظهر لنا غفلة العاصي إذا اطمأن إلى أن معصيته لن تُنقص إيمان قلبه. وإني أعرف رجلا شكا إلي أجواء عمله المختلطة التي فيها تبرج شديد يحس منه بالافتتان. فنصحته بترك عمله فرد بأنه قد عود أسرته على مستوى من المعيشة يتطلب دخلا عاليا فلا يمكنه النزول عنه. وبعد فترة ليست بالطويلة أرسل إلي رسالة بالبريد الإلكتروني يخبرني أن إيمانه يمر بمرحلة حرجة، وأنه يحس بأنه منافق خالص. وأنه إذا حاول حل مشكلته بسماع محاضرات زاد تشككا في النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم ألا ترى المتبرجة تعترف أول الأمر بذنبها وتطلب ممن حولها الدعاء لها، ثم قد تجدها بعد حين تقول إن الحجاب ليس كل شيء، وإني لا أدع فرضا إلا أديته، ثم إنها تبدأ بانتقاد المحجبات لبعض سلوكياتهن وتصرح أنها بأخلاقها خير منهن، ثم قد يصل بها الأمر أخيرا أن تهزأ بالحجاب وتقول: أتريد مني أن أبدو كالخيمة المتحركة! وما هي إلا معصيتها قد طمست بصيرتها. فليحذر العاقلون والعاقلات.

وسائل طرد الشك:

من وجد في قلبه شكا في الدين فعليه أولا بالدعاء. فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء. وفي الحديث القدسي ((يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أَهدِكم))[1] .

ثم عليه بسؤال أهل الحكمة من العلماء. فعن ابن الديلمي قال:

(وقع في نفسي شيء من هذا القدر خشيت أن يفسد علي ديني وأمري. فأتيت أبي بن كعب فقلت أبا المنذر إنه قد وقع في نفسي شيء من هذا القدر فخشيت على ديني وأمري. فحدِّثني من ذلك بشيء لعل الله أن ينفعني به)[2].

فابن الديلمي لم يترك هذا الخاطر يعتمل في قلبه، بل سارع إلى صحابي ليزيل شبهته بنور وحي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ليست الخواطر من الشك القادح في الإيمان

فالكلام المتقدم إنما هو عن الشك الذي يستقر في النفس، لا عن الخواطر الشيطانية التي يستعين صاحبها بالله تعالى ليدفعها. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (الأعراف)

و جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه: (إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: ((وقد وجدتموه ؟)) قالوا : نعم . قال: ((ذاك صريح الإيمان))[3]

---

[1] مسلم

[2] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة وصححه الألباني

[3] مسلم

وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (إني أُحدث نفسي بالأمر لأن أكون حممة أحب إلي من أن أتكلم به)...أي أن هذا الصحابي يفضل أن يحترق على أن يبوح بما يحيك في صدره من وسوسة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة))[1].

وقال عليه الصلاة والسلام: ((لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل: آمنت بالله))[2]

وختاما: من كان بين رفقةِ سوء يزيدونه في دينه شكا، ودعاةِ هداية يدعونه إلى الخير، فَلْيذكر ما أخرجه ابن جرير الطبري وابن المنذر عن قتادة: أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يضرب مثلا للمؤمن والكافر والمنافق كمثل رهط ثلاثة دفعوا إلى نهر، فوقع المؤمن فقطع، ثم وقع المنافق حتى كاد يصل إلى المؤمن، فناداه الكافر أن هلم إلي فإني أخشى عليك، وناداه المؤمن أن هلم إلي فإن عندي وعندي– يحصي له ما عنده. فما زال المنافق يتردد بينهما حتى أتى عليه الماء فغرَّقه. وإن المنافق لم يزل في شك وشبهة حتى أتى عليه الموت وهو كذلك[3] .

---

[1] صحح إسناده ابن حجر

[2] مسلم

[3] فيه ضعف لإرساله

2- الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

أسبابه الحقيقية:

تظهر هنا السلسلة التي أصَّلْنا لها في صفة الشك في الدين. فهذا الإعراض نـــاتج عن الشك الذي هو ناتج عن مرض القلب الذي هو ناتج عن الذنوب. قال الله تعالى:

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (المائدة)

فنقص يقينهم-أي شكهم- جعلهم يبغون حكم الجاهلية. وقال تعالى:

﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (النور)

فإعراضهم ناتج عن الريب الذي هو ناتج عن مرض القلب.

وقـــال تعـــالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ (المائدة-٤٩)

فذنوبهم السالفة اقتضت إمراض قلوبهم.

فشك المنافق في الدين يجعل حساباته أرضية، فلا ينظر إلى المصلحة الأخرويـــة في تطبيق أحكام الله تعالى، ويوهمه الشيطان بأن مصلحته الدنيوية في تحكيم الأهواء. والمنافقون يعمدون إلى الاقتصار على جانب محاربة ديـــن الله لعبـــادة الأوثـــان، ويريدون له أن يظهر وكأنه لا علاقة له بأوضاعهم الجاهلية مـــن الاحتكـــام إلى القوانين الوضعية.

أعذارهم الكاذبة:

قال الله تعالى في سورة النساء:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ (النساء)...

قال ابن كثير: (أي: يعتذرون إليك، ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك، وتحاكمنا إلى عداك إلا الإحسان والتوفيق، أي المداراة و المصانعة، لا اعتقادا منا صحة تلك الحكومة)[1] .

وهذا مما يضحك به المنافقون على البعض؛ يخبرونهم أن شريعة الله على الرأس والعين وأنهم ما يحتكمون إلى الشرائع الوضعية والأجنبية إلا لتجنب شر الكفار (المداراة) ولمصلحة الشعب (الإحسان).

قال ابن تيمية: (فإذا كان النفاق يثبتُ، ويزولُ الإيمان بمجرد الإعراض عن حكم الرسول وإرادة التحاكم إلى غيره، مع أن هذا ترك محض وقد يكون سببه قوة الشهوة، فكيف بالتنقص والسب ونحوه)[2] .وهو بهذا يُبين أن النفاق يثبت بمجرد ترك الاحتكام إلى الله ورسوله، حتى وإن كان المحتكم مقتنعا بصحة الدين، وحتى لو كان الدافع الشهوة، لا التكذيب والجحد للدين.

---

[1] تفسير ابن كثير

[2] الصارم المسلول

ثم قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ ﴾ (النساء)

فعجبا ممن يتظاهر بتبجيل النبي صلى الله عليه وسلم ثم يعرض عن أحكامه المفصلة في السلم والحرب والاقتصاد والجنايات...وهو ما أُرسل إلا ليطاع، فما قيمة أن يُبجل ويعصى بل وتحارب شريعته؟!

المنافق يكره حكم الله ورسوله:

قال تعالى بعد الآيات السابقة:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء)

ففي الآية ثلاثة شروط لا إيمان بغياب أحدها. ولاحظ قوله تعالى ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ ﴾...فالمؤمن يحب حكم الله ورسوله، والمنافق يبغض هذا الحكم.

وترى لهذا البغض أشكالا. كامرأة تقول: (أنا إن شككت في آية أنها مدسوسة على القرآن فهي آية مثنى وثلاث ورباع)!...فهي تكره الحكم كحكم، لا أنها تكره أن يتزوج زوجها عليها فحسب. وترى أخرى تقول: (كيف يقول القرآن: فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن. أنا إنسانة لي كرامتي)!

وأخرى تقول: (كيف تكون شهادتي أنا الدكتورة على النصف من شهادة بواب عمارتي لمجرد أنني أنثى)! وهذا كله نفاق[1]

فمرض قلب المنافق يجعله يكره ما أنزل الله، فيعرض عن الاحتكام إليه.

قال الله تعالى في الكافرين:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ﴾ (محمد)

وقال في المنافقين:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ ﴾ (محمد)...

فالمنافقون لما خالطوا الكافرين الذين كرهوا ما نزل الله، ووعدوهم بالطاعة في بعض الأمر، انتقل مرض كراهية الوحي إلى قلوبهم المريضة.

وفي المقابل، يحب المؤمن حكم الله ورسوله:

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾ (الحجرات)

المنافق يحتكم إلى ما وافق هواه من شرع الله:

وذلك ليخادع الله تعالى والمسلمين، بل ونفسه، بأنه يطبق "بعض" الشريعة:

---

[1] راجع محاضرة (الإسراء والمعراج بين الإيمان المطلق والمساءلة "العلمية") وخطب كراهية ما أنزل الله من www.al-furqan.org

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ ﴾ (المائدة-٤١)... إلى أن قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ ﴾...

قال ابن كثير: (قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه-أي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن اثنين زَنَيا- فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه، واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من الأنبياء قد حكم بينكم بذلك. وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك) اهـ.

هم بذلك ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ ﴾ (البقرة)

ثم قال تعالى: ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡ ﴾ (المائدة - ٤١)

...فـ"انتقائيتهم" هذه من الدين هي بسبب مرض قلوبهم.

إلى أن قال تعالى: ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ ﴾(المائدة-٤٢)...

فمرض قلوبهم نتج عن ذنوبهم، من سماع للباطل وتعاطٍ للرشوة والمال الحرام.

وقال تعالى أيضا واصفا هذه "الانتقائية" عند المنافقين:

﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩ ﴾ (النور)...

فترى من أصحاب السلطة في بلاد المسلمين مَن يسارعون إلى الإسلام لحل بعض المشاكل الاجتماعية، ويعلقون يافطات الآيات والأحاديث النبوية الحاضة

على إعطاء الفقير وإطعام اليتيم، ليحل الإسلام مشكلة الفقر الناتج عن فسادهم وسرقتهم. وفي المقابل يُعرضون عن حكم الله ويحاربونه عندما يدعو إلى الجهاد في سبيل الله و ينهى عن تولي اليهود والنصارى.

قال سيد قطب رحمه الله: (إن "دين الله" لا يصلح خادماً يلبس منطقة الخدم[1]، ويقف بحضرة "أسياده"، ويوجهونه حيث يريدون! يطردونه من حضرتهم فينصرف، وهو يقبل الأرض بين أيديهم.. ثم يقف وراء الباب– في شارة الخدم– رهن الإشارة!.. ويستدعونه للخدمة، فيقبل الأرض بين أيديهم، وينحني قائلاً: لبيك يا مولاي! كما يفعل من يسمونهم "رجال الدين"! كلا! إن "دين الله" لا يرضى إلا أن يكون سيداً مهيمناً قوياً متصرفاً عزيزاً كريماً، حاكماً لا محكوماً، قائداً لا مقوداً)[2] .

وعلى مستوى الأفراد قد ترى امرأة تستاء من قوله تعالى ﴿ وَٱضۡرِبُوهُنَّ ﴾ (النساء–٣٤) ... أو﴿ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ (النساء–٣)... إن تُلي أمامها قول الله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا ﴾(الإسراء–٢٣)، وكانت أُما... قد تقول في خشوع: (صدق الله العظيم)! ﴿ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثًا ٧٨ ﴾ (النساء–٧٨)

وما لـ"فنانة" تتكلم عن تسامح الإسلام وجماله وهي تضاد الإسلام بتبرجها ودعوتها إلى الفسوق والعصيان!

---

[1] أي: النطاق الذي يضعونه على وسطهم

[2] المستقبل لهذا الدين

ملاحظة: إيرادي لكلام سيد قطب لا يعني أبدا موافقته رحمه الله على أخطائه في كتاب العدالة الاجتماعية أو غيره، وقد أوضحت ذلك في كُتيبي: (تنقية القلوب تجاه أصحاب الحبيب) من موقع الفرقان

وما لِهؤلاء المفتونين بـــ "المـــنتقين" الذين يجعلون محاكم شـــرعية ومحـــاكم مدنية يعمون بها على الناس بأن هانحن نطبق بعض الشريعة...مـــع أن تطبـــيقهم للجزء الذي يريدون من الدين يجعلهم غير مطبقين ولا حتى جزئيا للـــدين، لأن هذا الجزء إنما طبق بأهوائهم، لا استسلاما وإذعانا لله تعالى.

– ولست أنسى كلمة رجل أمريكي قال لي مدافعا عن ديمقراطيتهم ما ترجمتـــه: (أعتقد أن علينا أن نسمح لله بالتدخل في حياتنا بالمقدار الذي نريد فحسب).

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ (الزمر–٦٧)

ولعل أحد "المنتقين" حين قرأ كلمة الأمريكي هذه استبشعها مع أنها ما هـــي إلا تعبير بلسان المقال عن حال "المنتقين".

ومن أبواب هذه الصفة النفاقية تأييـــدُ منـــاهج متعارضـــة مـــع الإســـلام – كالديمقراطية– في جزئيةٍ لله فيها حكم بَيِّن، كقبول جعل الولاية العامة لنـــصراني مثلاً.

أشكال من الاحتكام الخفي إلى غير حكم الله ورسوله:

فقد ترى امرأة لا تحتجب من أخ زوجها فإن نُصحت قالت: (هو مثل أخي). مع أن الله تعالى قد فصل في المحارم وما جعله لها محرما. وترى آخر يـــصر علـــى الدخول على العروس ليعطيها ما يسمونه نقوط العروس وليس لها محرما، فإن قيل له: إنها متزينة وليست في حجابها قال: (عاداتنا وتقاليدنا)! ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾(لقمان– ٢١) ...فَلْيحذر امرؤ لنفسه أن يتلبس بصفات النفاق وهو لا يعلم.

3) موالاة اليهود والنصارى والكافرين عموما

وقد أكثر الله تعالى من الآيات التي تُبرز هذه الصفة في المنافقين.

أسبابها الحقيقية:

وهذه الصفة كذلك هي وليدة الشك في الدين. قال الله عز و جلَّ:

﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (المائدة)... قال مجاهد: (يعني بذلك المنافقين) اهـ.

وحتى لو عُني بذلك اليهود فإن الآيات تبين قاعدة عامة منسحبة على اليهود وغيرهم أن متولي الكافرين لا إيمان عنده. فالمنافقون إذن يتولون الكافرين لشكهم وقلة إيمانهم. وكذلك قوله تعالى:

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ (المجادلة-٢٢) فالمنافق لما شك في الله واليوم الآخر أصبحت حساباته أرضية. فرأى أن القوة المادية بأيدي الكافرين فوالاهم ليكونوا له عزا:

﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ ﴾ (النساء)...

وشكهم هذا كما أسلفنا ناتج عن مرض قلوبهم. قال الله تعالى: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ (المائدة-٥٢)...فمسارعة المنافق في موالاة الكفار ناتجة عن مرض قلبه.

مبرراتهم المعلنة:

1) أن ترك هذه الموالاة يجلب عليهم المصائب ويدفعهم إلى المواجهة مع من لا قبل لهم بهم:

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾ (المائدة-٥٢)

وقد نزلت الآية في وصف حال عبد الله بن أبي ودفاعه عن يهود بني قينقاع وقوله (إني امرؤ أخشى الدوائر).

ومن أعجب العجب أني سمعت رجلا من باكستان يبرر لمنافقي بلده المواقف المعادية للمسلمين والموالية للصليبيين قائلا إنه لولا هذه المواقف فإن مشروع القنبلة النووية في بلده سيكون مهددا! فيا عجبي كيف تصبح القنبلة النووية في أيدي المنافقين سببا للخور والجبن والنذالة!

2) أنهم بموالاتهم هذه يصلحون بين المؤمنين والكافرين، فيعيش الفريقان في سلام وتعايش. قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (البقرة)

روى ابن كثير عن ابن عباس في تفسيرها: (أي: إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب). فوصف الله تعالى موالاتهم هذه بالفساد في الأرض، كما قال في الآية الأخرى بعدما فرض على المؤمنين أن يتولى بعضهم بعضا: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ (الأنفال)

أئمة النفاق يتآمرون مع الكافرين ضد المسلمين:

قال الله تعالى واصفا المنافقين: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (البقرة) ... **وقال تعالى:**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَ ﴾(المائدة-٤١)

فالمنافقون إذا التقوا بأوليائهم وأسيادهم من أهل الكتاب والكافرين عموما تباهوا بمخادعتهم للمؤمنين وتلقوا من أسيادهم الأوامر وتآمروا معهم للكيد بالإسلام وأهله.

وقال تعالى مبينا نية المنافقين في بناء مسجد الضرار:

﴿ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُ ﴾(التوبة-١٠٧)

أي: إعدادا لاستقبال أبي عامر الفاسق الذي وعدهم أن يأتي بجيش من الروم ليحارب به المؤمنين...

بل وكثيرا ما يكون المنافق أكثر تفانيا من أسياده الكفار الصرحاء في خدمة الباطل وحرب المؤمنين، فهو أذل نفسا وأقل نبلا.

قال شيخنا الموفق علي القرني:

(الكفار يريدون طائفة النفاق على المسلمين حمىً تنهك فتكون طاعونا يهلك! يريدها لسانا فتكون لسانا وعينا وأُذنا ويدا ورجلا ومقراظا للقلع وفأسا للقطع ومعولا للصدع...)[1]

اجتمعوا في الدنيا فسيجمعهم الله تعالى في الآخرة:

قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠ ﴾ (النساء)

[1] من شريط: (أرعد وأبرق يا سخيف) بتصرف

فكما اجتمعوا على عداوة الإسلام والاستهزاء بأهله في الـــدنيا فـــسيجمعهم الله تعالى في جهنم حيث يلعن بعضهم بعضا ويكفر بعضهم ببعض.

الله تعالى يحذر المؤمنين من اتخاذ الكافرين أولياء:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ ﴾ (المائدة)...

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤ ﴾ (النساء)... وقال تعالى:

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ ﴾ (آل عمران-٢٨) فالله يتبرأ ممـــن تولاهم. والله تعالى أعلى من أن يكون مع الأنجاس في موالاة منافق.

ويهيج الله تعالى في المؤمنين مشاعر المحبة لدينه ليعلموا أن حب الله ودينه لا يجتمع مع حب المستهزئين بالدين في قلب واحد:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ٥٨ ﴾ (المائدة)

بل ونهى الله عز وجل عن تولي من يتولى الكافرين فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا ﴾ (آل عمران-١١٨)... وهم المنافقون.

– فما بال الذين يقولون عن الكفار أهل الكتاب "إخواننا النصارى" وقد كفروا بالتوحيد وبرسول الله صلى الله عليه وسلم. والله تعالى ما جعل المؤمن أخا للكافر أبدا، وإنما جعل المنافق كذلك فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (الحشر: ١١)

– وقد بلغ من فساد بعض من ينتسبون إلى العلم أن أفتوا للمسلمين المجندين في جيوش دول صليبية بمحاربة المسلمين لئلا يُشك في ولائهم وانتمائهم إلى بلادهم وأتوا على ذلك بـ"أدلة". وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال: ((إن أخوف ما أخاف على أمتي من بعدي كل منافق عليم اللسان))[1] . روى البخاري أن ناسا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقُتل بعضهم في الحرب، فأنزل الله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾ (النساء)...

قال ابن كثير: (فنزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكنا من إقامة الدين، فهو ظالم لنفسه، مرتكب حراما بالإجماع، وبنص هذه الآية) اهـ. فهؤلاء أناس فُرضت عليهم الهجرة ليتمكنوا من إقامة دينهم بالمدينة فآثروا الإقامة في الأهل والمال والأوطان على إظهار دينهم حتى دُفعوا دفعا إلى الخروج في جيش المشركين في بدر. فقُتل من قُتل منهم ظالما لنفسه. فما بال الضلال الجهال الذين يُفتون لجندي أمريكي مسلم أن يحارب المسلمين ليحافظ على جنسيته الأمريكية ودولاراته!

[1] صححه الهيثمي والألباني

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الحج)

فلينظر كل امرئ إلى حاله، أيجد الطمأنينة في كنف المشركين والمنافقين والظالمين.

فإن كان كذلك فإنه منافق. فالله تعالى قال:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

(المنافقون)

فمن لم يستيقن أن العزة إنما هي لله وأنْ ليس للكافرين منها شيء فهو منافق.

العز في كنف العزيز ومن عَبَدَ العبيد أذله الله

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (المائدة)

4) تغيير الولاء بحسب ميزان القوى

وهذا في المنافقين طبع خسيس وخُلق رخيص. فإن المنافق لما كانت حساباته أرضية طينية، فإنه ينظر إلى كفَّةِ مَنْ مال ميزانُ القوى...فإن طاشت كفة أوليائه تنكر لهم، وأعطاهم دُبُره، وحالف ضدهم وساعد عليهم، كأن لم تكن بينه وبينهم مودة! فلا يظنن ظان أن موالاة المنافق للكفار مرتكزة إلى ركن وثيق، بل هي المصلحة الأرضية المادية– جمع القروش وملء الكروش. فالمنافق لا يفهم معنى الوفاء لوليه والمروءة والشهامة والنبل والنخوة والنجدة...ومن استثار فيه هذه المعاني كان كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء.

قال الله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ (الحشر– ١١)

هكذا المنافق! وعود عريضة وجرأة عظيمة فيما يبدو...لكن الله بين كذبهم:

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (الحشر)...

فبمجرد أن يذهب مجد الكافرين تظهر خسة المنافق ونذالته... ثم بين الله تعالى السبب فقال:

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (الحشر– ١٣)

فالمنافق عندما والى الكافر ما استحضر أمر الله ونهيه...وعندما ترك هذه الموالاة ما تركها لله وإنما خوفا من المؤمنين. فهو لم يذكر الله على كل حال!

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

والمنافق في ذلك أخس من الكفرة. ففي غزوة بني قريظة أوفى حيي بن أخطب لبني قريظة بوعده أن يدخل معهم في الحصن ويتعرض للمصير الذي يتعرضون له، ولم يوفِ المنافقون بوعد النصرة لبني النضير الذين نزلت فيها هذه الآيات أعلاه.

– والمنافق يعتبر من الحكمة أن يتقلب ويميل مع الريح حيث تميل. قال الله تعالى واصفا المنافقين:

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(النساء-١٤١)

فهم مع المنتصر أيا كان. وكأني بالمنافق يمشي مخبولا يسيل لعابه، حاملا في يده صحنا يدور به باحثا عن المنتصر ليستجديه أن يملأ الصحن طعاما... إن قلتَ له: "رضوان الله"، "الجنة"، "الغيرة على الدين"...فتح فمه ببلاهة ونظر إليك نظرة من لم يفهم شيئا ثم تولى عنك وهو يقول: (وهل تملأ هذه صحني؟)!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة، ولا تدري أيتهما تتبع))[1] .

وقال الله تعالى:

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾ (النساء)

فيعتبر المنافق نذالته حكمة بل ونعمة من الله تعالى!

﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ ﴾...سيندم حينئذ ويتمنى لو كان مع المؤمنين. هل تراه

[1] مسلم

يندم لأنه يرى نصر الله لعباده المؤمنين فيعلم أن العزة لله ولرسـوله وللمـؤمنين فيحتقر ما هو فيه من بطالة ونفاق وتشتاق روحه إلى التحليق في مدارج الأبطال النشامى؟ لا! ما زالت تطلعاته لا تعدو أصابع قدميه!

﴿ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾...يريد الغنيمة...بضعة دنانير ومتاعا زائلا.

-إن عُلم هذا فَلْيَتَّق اللهَ أقوامٌ منسوبون إلى العلم أن ينسبوا إلى دينه وإلى رسوله مذهب المنافقين في تقليب الولاءات والخنوع للقوي المبطل باسم الدين. والله من ذلك بريء، ورسولُه صلى الله عليه وسلم سيد الشرفاءِ الأوفيـاءِ، والمؤمنـون الصادقون.

5) الكذب

النفاق والكذب لفظتان مترادفتان:

لو طلب منك أن تُجمِل صفات المنافقين في كلمة واحدة فقل: هي "الكـــذب"!

قال الله تعالى:

﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ (الأحزاب-٢٤) ...فجعل في مقابلة الصادقين: المنافقين. وفي حـــديث ((أربع من كن فيه كان منافقا خالصا)) تجد أن الصفات الأربعة تـــدور حـــول الكذب: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف (والإخلاف كذب)، وإذا عاهد غدر (والغدر كذب)، وإذا خاصم فجر (والفاجر في خصومته كثيرا ما يكـــذب في ذم من خاصمه).

ومما يشبه الكذب أن يخالف فعلك قولك، فيكون الفعل مكذبا للقول.

لذا ترى أن الله تعالى كره، بل مقت أن يتلبس المؤمن بهذه الصفة الـــتي تجعلـــه يتقاطع مع شخصية المنافق في شيء مشترك فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ (الصف)

وكم نرى هذه الصفة-مخالفة الفعل للقول- في المسلمين! كم نراهم يذمون واقعا هم لِبناتُه والمسهمون فيه:

كم قلت أمـــراض البلاد وأنت من أمراضها
والشؤم عـــلتها فهل فتشـــت عن أعراضها
يا من حملت الفأس تهـــــدمها على أنقاضها
اقعـــد فما أنـــت الذي يســـعى إلى إنهاضها
وانظـــر بعينيك الذئاب تعبُّ في أحواضـــها

كم ترى من مسلم يذم الخيانة وتسليم البلاد لأعدائها ويلعن المتآمرين من بني جلدتنا وإن سألته أتتمنى أن تجاهد قال بلا تردد (يا ريت! طبعا). ثم هو يشعل دخانه المستورد من بلاد "الأعداء" السالبين للـ"بلاد" ويجاهد خلايا جسمه ويحرق مع سيجارته شعاراته الرنانة ونواياه الجهادية! فهذا لم تصفُ نيته للجهاد ولم يُعدَّ له العدة، بل يفعل خلاف ما يقول. فنسأل الله أن يهدي أمثال هؤلاء ويُصلح أعمالهم...

المنافق يكذب أول ما يكذب على نفسه:

قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ (الأنعام-٢٤)

...قال: (...وكَذِبُ المنافقين باعتذارهم بالباطلِ وجَحْدِهمْ نفاقَهم)

فالمنافق يعتذر لنفسه بالباطل، ويبرر لها نفاقها، ويعميها عن الحق، ويزين لها ما هي عليه من سوء، و يُحجِّم نداء الإيمان فيها، ويقنعها بأن طريق النفاق أسلم... بل ولا يعتبر صفات النفاق نفاقا، بل يخدر شعور نفسه بأن فيها صفات حميدة وأنها على خير.

المنافق يكذب ليبرر أعماله السيئة:

أمَا وقد خدع نفسه فالخطوة التالية هي مخادعة المؤمنين. فالمؤمنون في نظره بسطاء سذَّج ليس عندهم من الحكمة كالذي عنده. فلا بد من مخادعتهم "ترفعا" عن الخوض معهم في جدل عقيم، ووقاية للنفس من انفعالات عواطفهم "الساذجة" في نظره. فلا يجد المنافق حرجا من أن يحلف لهم كذبا:

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ﴾

(المنافقون)

فهو يفعل كل بشعة ويتمرغ في أوحال النفاق ثم يحلف بالله ما أراد إلا الحسنى، فينطلي حلفه على مؤمنين لا يتصورون أن يحلف رجل كذبا! فيتمادى المنافق في طغيانه بعد أن اطمأن إلى تصديق الناس له.

وانظر كيف ينكر الله تعالى عليهم هذه الفعلة القبيحة–الكذب للصد عن سبيل الله، فيقول:

﴿ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (التوبة) ..وذلك كقوله تعالى أيضا:

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ ﴾ (المجادلة)

فالأيمان الكاذبة هي الدرع الواقي الذي يحتمي به المنافق في الدنيا والستار الذي يمرر من ورائه كل ردية، لكنها الغموس له في نار جهنم خالدا فيها مخلدا أبدا.

وانظر فيما يلي كيف يغطي المنافق صفاته النفاقية بالكذب:

1– الشك في الدين:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ (البقرة)

وقال تعالى:

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ (المنافقون)

2– الإعراض عن الاحتكام إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾ (النساء)

إلى أن قال تعالى:

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ ﴾ (النساء)

فيحلفون أنهم ما احتكموا إلى الطواغيت تكذيبا بالإسلام.

3- موالاة اليهود والنصارى والكافرين عموما:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (المجادلة)

4- التخلف عن الجهاد:

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۖ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ (آل عمران)... **وقال تعالى:**

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ (التوبة)

5- قلة الأدب مع الله تعالى ومع رسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ﴾ (التوبة-٧٤)... **فهم كانوا يشتمون النبي صلى الله عليه وسلم ويكذبونه ثم إذا نقل إليه شيء من ذلك حلفوا أنهم ما فعلوا.**

وعن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا في ظل حجرته قد كان يقلص منه الظل فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: ((يجيئكم رجل ينظر إليكم بعيني شيطان فإذا رأيتموه فلا تكلموه)) . قال : فجاء رجل

أزرق فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم دعاه قال : ((عـــلام تـــشتمني أنـــت وأصحابك؟)) قال : كما أنت حتى آتيك بهم . فذهب فجاء بهم فجعلوا يحلفون بالله ما قالوا ولا فعلوا[1]

فانظر إلى هذا الرجل كيف احترف الكذب حتى أنه يتظاهر للنبي بأنه لـــن يقول شيئا لئلا يُكذَّب بل سيأتي بأصحابه ليحلفوا أنهم ما شتموا، وكأن كـــذب الجماعة أوثق من كذب الفرد! فيأتون يحلفون... ورسول الله صـــلى الله عليـــه وسلم في هدوئه ورفعته ينتظرهم ليفرغوا من تمثيلهم المبتذل ويتجاوز عنهم.

تخيلهم إذا افتضح أمرهم أمام أي صالح يخشون سطوته...يأتون فيـــصطفون أمام هذا الصالح وقد تقاسموا الأدوار: فأحدهم يقسم بالله رافعا إصـــبعه الآثم إلى السماء، والآخر يقبض يديه ثم يمدهما مع بسط أصابعه إنكارا، والثالث يقـــاطع صاحبيه وهو يشير إلى صدره الأسود من الداخل مشهدا الله على ما في قلبه –في زعمه– من حب وتعظيم لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

6– التفريق بين المؤمنين:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ ﴾ (التوبة)

... وهكذا هم! سوء طوية وفساد نية، وادعاء عريض مع عمل بغيض:

﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٥٣ ﴾ (النور)

[1] قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح، وحسنه الأرنؤوط

المنافق يكذب خوفا من المؤمنين، والله أحق أن يُخشى:

قال الله تعالى:

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ﴾ (التوبة-٩٥)...

وقال تعالى:

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (التوبة)... **وقال تعالى:**

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (التوبة)... **فلا يخافون إلا الناس، ولا يبالون أن يكون ما بينهم وبين الله تعالى خرابا بلقعا! ألا شاهت الوجوه وعميت الأبصار، ونعوذ بالرحمن من قسوة القلب ومن أن نضل ونحسب أنا مهتدون.**

قد يُصدق المؤمن المنافق:

فالمؤمن بطهر قلبه وتعظيمه لله تعالى قد لا يتصور أن يوجد في الناس من يكذب – بل ويحلف كذبا– بهذه الصورة المبتذلة:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ (البقرة)... **أيُعقل أن يكون في بني آدم من يقول: (أُشهد الله أني مؤمن به مصدق لرسوله محب لدينه) وهو في الحقيقة عدو لله مبغض لدينه!؟ أيصل الاستخفاف إلى أن يُشهِد الله على ما في القلب ليتقي بطش المؤمنين، وهو يعلم أنه ما في القلب إلا العفن وسواد النفاق! أي استهزاء بالله هذا؟!** ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (البقرة)

وهكذا هم: ﴿ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ (التوبة-٨)

فالمؤمن قد يرضى عن المنافق لحلاوة لسانه الموهمة بخلاف ما في قلبه.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ (المنافقون-٤)

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم جسم البغال وأحلام العصافير

فأمَرَنا الله تعالى ألا نؤمن لهم ولا نصدقهم إذ ظهرت لنا منهم أمارات النفاق وخالفت أفعالهم أقوالهم، فتصديقهم خطر:

﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ (التوبة-٩٤)

فالمنافق لن يقف ليقسم بالله العظيم وبوجهه الكريم وبسلطانه القديم أنه لا يؤمن بالله، لكن لسان حاله ينطق بذلك، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال.

من يدعي حب الحبيب ولم يفد من هديه فسفاهة وهراء

فالحب أول شرطه وفروضه إن كان صدقا طاعة ووفاء

منافقو أيامنا هذه يستعلنون:

في أزمنة عزة المؤمنين وعلو شأنهم كان المنافقون لا يستعلنون بخبثهم، بل يتناجون به خفية:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ (المجادلة-٨)

وهم في ذلك كهمل المدارس الثانوية الذين يدخنون في حمامات المدرسة في نهار رمضان.

أما في أيامنا هذه، فمع علو أهل الكفر في الأرض واشتداد المحنة على المؤمنين أصبح المنافقون، وأئمتهم خاصة، في أكثر الأحيان لا يحتاجون إلى ستر سوءاتهم.

فالاستكبار على الدين ورفض حكمه وموالاة الكفرة والطعن في الجهاد أصبحت كلها من مقومات السيادة ومؤهلات الصدارة في كثير من مجتمعات المسلمين. وإنما أصبح المنافقون يكذبون بالقَدْر الذي يُخَدِّر غضب عامة المسلمين الذين ينخدعون بكلمات قليلة معسولة عن حب الدين يطلقها المنافق وهو يسبح في وحل نفاقه الواضح لكل ذي بصيرة. إنما هو لا يريد أن "يُقرفه" هؤلاء "الدراويش" إذا أغضبت سلوكياته وتصريحاته "المتنورة" عواطفهم الدينية "الساذجة" في نظره!

تبلغ السفاهة بالمنافق أنه يحاول الكذب على الله تعالى:

وهذا درك من العجب أن تنحط إليه نفس إنسانية، واستخفاف بعظمة الله تعالى لا أكاد أفهمها! خاصة إذا تذكرنا أن هذه المحاولة البائسة ستكون يوم البعث عندما يُكشف الغطاء فالبصر حديد ولا غيب يومئذ! قد عاين المنافق صدق ما كان يشك فيه وعلم أن الله هو الحق المبين. أمع هذا كله لا زال يكذب، بل يحلف كذبا! وليخادع من؟! ليخادع الله تعالى!

﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (المجادلة)...

فبالهيئة المبتذلة نفسها يحلفون ويحسبون أن ذلك ينفعهم مع من يعلم السر وأخفى.

فالمنافق ما وصل إلى هذا المستوى الدنيء إلا بكثرة تدربه على الكذب في الدنيا... أدمن الكذب بل الحلف على الكذب فاستقر ذلك في قلبه ولم يبل مع الدفن وتعاقب القرون قبل البعث.

قد كانوا في الدنيا كما وصفهم الله تعالى:

﴿ وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (البقرة)... يُقر فريق من منافقي اليهود بأن الله تعالى قد بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رسولا ويَذكرون نعته في التـــوراة المطابق للواقع، فيلومهم فريق آخر لأن هذا الإقرار يقوي حجة المـــؤمنين علـــى المنافقين أمام الله يوم القيامة. بل ويشتد هذا الفريق في النكير حتى يقول للأولين: (أفلا تعقلون!). وكأنهم يتكلمون عن إله غائب لا يسمعهم في هذا الحوار، بـــل ولن يطلع على ما في صدورهم حتى ولا يوم القيامة! إنما كل همهم أن يستطيعوا الكذب عليه يوم القيامة وأن يقنعوه بضعف حجة المؤمنين! وهذا عندهم العقـــل كل العقل!

فقال تعالى معجِّبا من سفاهتهم:

﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ (البقرة)

وهذا القدر من الانحراف يحتاج تدربا طويلا على الكذب. فمخادعة للنفس، ثم مخادعة للناس، ثم مخادعة لله في الدنيا، ثم مخادعة لله يوم القيامة. وما ذلـــك إلا لأن قلوبهم قست فـــفـــقدوا الشعور:

﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (البقرة)

اللهم فاعصمنا من الانحطاط في هذه الدركات.

الصدق تدل عليه الأعمال، وعلى رأسها الجهاد:

فالدعاوى يستطيعها كل أحد، أما الأفعال فلا يثبت عليها إلا الـــصادقون، خاصة إذا كان فيها التضحية بالنفس والمال كما في الجهاد. لذلك تجد في ســـورة براءة أن الله تعالى فضح المنافقين وبين تخاذلهم عن الجهاد ثم قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ وَمَنۡ حَوۡلَهُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ (التوبة)

فالمؤمن الصادق يبرهن على صدق إيمانه بألا يضن بنفسه عن تضحية ضحاها رسول الله، وألا يتناءى بها عن معاناة ومشقة عاناها رسول الله صلى الله عليه وسلم. والمؤمن الصادق لا يقول لنفسه: أيُعقل وأنا صاحب الأملاك والعقارات وصاحب العقلية الذكية والمواهب الفريدة أن تنتهي حياتي في معركة؟! ﴿ وَلَا يَرۡغَبُواْ بِأَنفُسِهِمۡ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾...فإن كان جهادا حقيقيا شرعيا فإنه لا يربأ بنفسه عنه.

وقال تعالى:

﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾ (الحجرات-١٤)... **إلى أن قال تعالى:** ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

فجعل الصدق –الذي هو ضد الكذب صفة المنافقين– في الإيمان الذي لا يخالطه شك وفي الجهاد. وقال تعالى:

﴿ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ (البقرة)

و(حين البأس) أي: عند مواطن القتال، أي: في الجهاد. وهذه الآية تنص على أن الذين صدقوا–في مقابلة المنافقين الذين كذبوا–هم أولئك الـــذين يـــأتون بهـــذه الأفعال، ومنها الجهاد. وقد رأينا، وسنرى فيما يأتي، أن المنافقين لا يـــأتون بهـــا. فبدل الإيمان شك، وبدل الوفاء إخلاف عهد، وبدل الصبر انتكاسة وجبن، وبدل الجهاد قعود.

فاللهم اجعلنا من الصادقين.

6) التخلف عن الجهاد

علاقته بالشك في الدين ومرض القلب والذنوب:

وكما في صفات المنافقين كلها فهذا التخلف ناتج عن الشك في الدين الذي هو ناتج عن مرض القلب. ومرض القلب ثمرة الذنوب.

أما الذنوب، فقال الله تعالى:

﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ (النساء-٨٨)

وقد روى البخاري أنها نزلت في المنافقين الذين رجعوا من جيش رسول الله المنطلق إلى أحد، فأبوا أن يتابعوا معه المسير إلى الجهاد. فالتخلف عن الجهاد إذن ثمرة الذنوب.

وقال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ (آل عمران-١٥٥) **فالذنوب التي يُسلفها الإنسان أيام الراحة تجتمع عليه يوم الجهاد لتُضعفه عن إرادة التضحية في سبيل الله تعالى.**

وأما مرض القلب، فقال تعالى:

﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ (محمد)

فمرض القلب يُجبن عن القتال ويجعل صاحبه يفغر فاه ويصفر وجهه وتدور عيناه إذا علم بقرب المواجهة. وانظر ارتباط مرض القلب بالذنوب من إفساد في الأرض وتقطيع للأرحام.

وقال تعالى:

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٌ أَنۡ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسۡتَـٔۡذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوۡلِ مِنۡهُمۡ وَقَالُواْ ذَرۡنَا نَكُن مَّعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (التوبة)

فترك الجهاد مقترن بالطبع على القلب، أي مرضه. فمرض القلب يُقعد عن الجهاد، والقعود عن الجهاد يزيد مرض القلب.

وأما الشك في الدين، فقال تعالى:

﴿ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (التوبة)... ولا عجب. فكيف يضحي إنسان بنفسه في سبيل قضية لا يؤمن بها. إن كانت التكاليف المطلوبة سهلة ميسورة فلا بأس عند المنافق، على طريقة ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ (الكهف-٣٦)... فالمنافق قد يؤدي بعض التكاليف "احتياطا"، بحيث "في حال" ثبت أن هناك إلها وآخرة وجنة ونارا فها قد قدم ما قد ينجيه في ظنه، وفي حال أن ذلك كله لم يكن فهو لم "يخسر" كثيرا. أما أن "يغامر" بنفسه في سبيل ما لا يتيقن، فالمنافق لا يرى ذلك من الحكمة.

المنافق يتفنن في الأعذار للتخلف والتثبيط عن الجهاد:

1) فتارة يقول: (إنه لا حرب على الإسلام كدين، وإنكم أيها المشايخ تؤمنون بنظرية المؤامرة وتفسرون كل حدث على أنه جزء من هذه الحرب الصليبية في زعمكم. وهذا من وساوسكم وعقدكم النفسية). وهذا كما قال ابن سلول وفئته الناكصة يوم بدر. قال الله تعالى:

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡ ﴾ (آل عمران)... أي: لو نعلم أنكم تلقون حربا لجئناكم ولكن لا تلقون قتالا.

ولذلك ترى المنافق إذا ما نُخز لينجد المسلمين ويدفع عن الأمة قلل من شأن الحرب على الإسلام وأكد أن دوافع الحرب اقتصادية أو أنها تستهدف فئة من أصحاب الغلو، وليس الإسلام ذاته!

2) وتارة يتعلل بعدم مناسبة الطقس للجهاد! وانظر إلى سخافة أعذارهم! وكأن الجهاد يتحمل التأجيل حتى يصبح الجو جميلا وتكون رحلة الجهاد نزهة شيقة. قال تعالى:

﴿ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ ﴾ (التوبة- ٨١)... فرد الله عليهم ردا يهز الكيان ويقشعر منه جلدُ مَن به روح:

﴿ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١ ﴾

تَصَوَّرْهم معي وهم يثنون أعناق خيولهم لتُدبِر عن الجيش الإسلامي قائلين: (لا تنفروا في الحر)، حتى إذا استدارت وجوههم الآثمة وتوارت عن أنظار المؤمنين تغامزوا ضاحكين من عذرهم السخيف... قال الله تعالى:

﴿ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢ ﴾

وَلْيبكوا كثيرا...فرسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال:

((إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا، وإنه لأهونهم عذابا)) [1] .

[1] البخاري ومسلم واللفظ لمسلم

فما بالك بمن هو في الدرك الأسفل من النار؟! لن يفرحوا يومئذ بمقعدهم! ولعل المؤمنين يقولون لهم يومئذ وهم يضحكون: لا تنفروا في الحر! فها قد أتاكم إلى عندكم!

وانظر كيف قال الله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ ﴾... وهذا فارق بين المؤمن والمنافق. فإن المؤمن قد يقع في معصية لشهوة، لكنه بعد مقارفتها يندم عليها...كما وقع من كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم عندما تخلفوا عن تبوك.

3) وتارة يتعلل من في قلبه نفاق بعدم مناسبة الوقت للجهاد. فما زال لديه طموح وخطط مستقبلية لا يحب أن تقطعها المنية. ولا زال يرى في نفسه إمكانيات ينبغي أن تُستغل لـ"صالح البشرية". فهو صاحب عقلية ومواهب... خسارة أن تضيع بضربة سيف أو رمية رمح! قال الله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ (النساء)

وقد روى النسائي وغيره بسند صحيح عن ابن عباس ما يدل على أن هذه الآية شملت بعض الصحابة الصادقين الذين تمنوا الجهاد حقا لكنهم ضعفوا عند فرضه عليهم. لكن شتان بين هؤلاء الصحابة والمنافقين. فإن هذا الفريق من الصحابة وإن كبا كبوة عارضة إلا أنهم بعد تذكير الله لهم استجابوا لله وللرسول فنهضوا شجعانا ولم يتخلفوا عن رسول الله بعدها ومسحوا هذه الزلة العارضة

بتاريخ أبيض ناصع من الصبر والثبات غازين ومغزوين، لم يؤثَر عنهم بعدها (ليت) ولا (لو) ولا (لولا). وخير الخطائين التوابون.

أما المنافقون فإنهم لما دنت المواجهة وفرض القتال ضرب الخوف أطنابه في قلوبهم... فخشوا الناس أكثر من خشية الله وبقوا معترضين على قدر الله وأمره متسخطين عند كل اختبار قائلين في أنفسهم: (ربنا لِمَ كتبت علينا القتال؟)! وأكبر همهم أن يتواروا عن أعين المؤمنين فلا يُعلم نكوصهم عن الجهاد فإن خرجوا إليه كارهين فإنهم لا يأتون البأس إلا قليلا. وفي قتالهم هذا:

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾ (النساء-٧٨) ... أي من اتباعنا دين محمد.

ويبقى هذا الجبن والتسخط في قلب المنافق إلى أن يموت.

4) وتارة يتعلل ببعد المسافة عن أرض الجهاد:

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ﴾ (التوبة-٤٢)

فما عند المنافق من إيمان لا يكفي إلا لمسافة قصيرة... وبعد هذه المسافة ينفد وقوده الإيماني! ويا حبذا لو كان المنتظر من هذا الجهاد القريب غنيمة تستحق الخروج؛ فـ"جنة عرضها السماوات والأرض" لا تفعل في نفس المنافق فعل درهم أو قطيفة!

5) وتارة يتعلل بأن الجهاد سيفتنه وبأن الالتزام بدين الله سينفره عن دين الله:

روى المفسرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أثناء تجهيزه لغزو الروم قال لرجل اسمه الجَدُّ بن قيس: ((هل لك يا جَدُّ العامَ في جلاد بني الأصفر؟))- أي: ألا تخرج لتقاتل الروم؟ فقال: (يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني

الأصفر أن لا أصبر عنهن). فأنزل الله: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ (التوبة-٤٩)[1].

وإن البعض قد يتعذر لنفسه في ترك أمر من أوامر الله بأنه إن فعل هذا الأمر فسينفر من الدين...فيقول في نفسه: فلأَبْق على معصية فعلية خير لي من هذه الموبقة العقدية: النفرة من الدين. قد تقول المتبرجة ذلك لنفسها وقد يقولها صاحب النظرة المحرمة.

وعلى هؤلاء جميعا يرد الله تعالى فيقول:

﴿ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ (التوبة-٤٩)

فهذا التعذر الأجوف المبتذل هو عين الفتنة، كما أن ترك أمر الله فتنة.

وكم يتعذر المعطلون للجهاد بدرء الفتن عن بلادهم وتجنيبها الويلات، فإذا بالشباب الذين جُنبوا التضحية في سبيل الله تأسن أرواحهم فيقعون في مستنقعات الشهوات والتنازع على الدنيا فيُهلكون دنياهم وأخراهم:

﴿ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾

6) وتارة يتعذر بأن وقوفه في خط المواجهة يهدد أمنه الداخلي:

﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ (الأحزاب)

فقد ادعى المنافقون أن بيوتهم قريبة من جيوش العدو فيخافون على أهليهم أو أموالهم.

---

[1] وسبب النزول هذا وإن كان في إسناده ضعف إلا أن الطبري قال فيه: وبذلك من التأويل تظاهرت الأخبار عن أهل التأويل

وهكذا...إذا دهم العدو بلدا من بلاد المسلمين فإن المتخاذلين في البلاد الأخرى يرفعون شعار أن المحافظة على أمن بلدهم أولى من نصرة المسلمين المنكوبين.

7) وتارة يتعذر بالانشغال بالمال والأهل:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ ﴾ (الفتح- ١١)

فهم لم يندموا على تخلفهم ولم يتوبوا إلى الله بقلوبهم، وإنما يطلبون الاستغفار رياء ونفاقا. ولو أن الروم الذين تخلف المنافقون عن الخروج إليهم دهموا المدينة لأهلكوا المال والأهل، فكيف يكون الانشغال بالأهل والمال عذرا؟! لكن المنافقين مطمئنون إلى أنهم حينئذ يسارعون في الكفر ليدفعوا عن أنفسهم وأهلهم وأموالهم.

فهذه أعذارهم! ظلمات بعضها فوق بعض...حجج الخَزِيِّ الجبان وادعاءات بطال كسلان. فلن يجاهد المنافق إلا إذا أمَّنت له "جهادا" مفصلا على هواه: جهاد في فصل الربيع على مسافة قصيرة وبغنائم وفيرة، وفي الوقت المناسب بعد أن يفرغ من تحقيق الأماني، شريطة أن يكون أهله في غنى عنه وتجارته لها من يُسيرها وأن يتفرغ الجيش الإسلامي لحماية بيته من خلفه، وشريطة أن تخلو ساحة الجهاد من نساء فاتنات وألا تكون في الجهاد تضحيات تفتنه عن دينه، وشريطة أن يعلن العدو بلسانه أنه يحارب الإسلام ذاته!

وهو مع ذلك كله يقسم:

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (النور)

طاعة بالشروط المذكورة. فهم كمن قال:

أُحَمِّــس في الوغى أبناء قومي　　　وأحــــمي ظــهرهم عند القتال

فإن فروا سبقتهم جــميعــا　　　وإن كـــروا فـــقد دبرت حالي

ولي عــزم يشــق الماء شــقا　　　ويكســر بيضـــتين على التوالي

وقـــال تعـــالى في المنـــافقين: ﴿ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ ﴾ (الأحزاب- ١٩)

قال ابن كثير: أي: فإذا كان الأمن تكلموا كلاما بليغا فصيحا عاليـا، وادعــوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة، وهم يكذبون في ذلك.

لا يكتفي المنافق بقعوده عن الجهاد بل يثبط غيره:

قال الله تعالى:

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ (الأحزاب)

وقال تعالى:

﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ (النساء- ٧٢)

فيتباطأ هو في نفسه ويبطئ غيره عن الجهاد.

بل ويطعن المنافق على الجهاد نفسه ويعتبر تركه حكمة:

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ﴾ (آل عمران- ١٦٨)

ففي القعود السلامة!

يرى الجبناءُ أن العجز عقل　　　وتلك خديعة الطبع اللئيم

بل ويتجاوز بعضهم كل حد، فيستغل ما يصيب المؤمنين من ابتلاء في معركة من المعارك ذريعة للطعن في الدين ذاته:

﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾(آل عمران- ١٥٤)

قال بعض المفسرين فيما أورده البغوي: أي: لو كنا على الحق ما قتلنا ههنا). فهم اعتبروا ما أصاب المسلمين يوم أحد دلالة على بطلان الدين. فحساباتهم أرضية بحتة، لا يفهمون أن الله تعالى يمحص بذلك الابتلاء صف المؤمنين من شوائب المنافقين، ويتخذ شهداء يعلي لهم المنازل ويعظم الأجور.

فالمنافقون هرطقوا بأن طاعة النبي صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى المشركين خارج المدينة سبب للمصيبة في أحد. والحق أن سبب المصيبة هو عصيان الرسول ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ﴾(آل عمران- ١٥٢)

وهكذا المنافقون! ينسبون كل مصيبة تحل بالمسلمين إلى الجهاد والمجاهدين

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾(النساء- ٧٨)

أي من قِبَلك (يا محمد) وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك[1]، ويقولون هذه من عند محمد، أساء التدبير وأساء النظر[2].

يقولون جرَّنا محمد إلى مواجهة لم نستعد لها وهيج علينا الأمم. ألا شاهت الوجوه وشُلت ألسن تنسب الفشل إلى طاعة الله والرسول، فما أُتيت الأمة إلى من قِبَل المنافقين وإفسادهم وتفريقهم صف المسلمين وتخذيلهم المسلمين عن رد عدوهم.

لذا ترى أن الله تعالى يحذرنا من هذا المنطق الأعوج في اعتبار ما يصيب إخواننا دلالة على بطلان قضية الجهاد ودافعا إلى القعود لسلامة الأرواح ويبين أن ذلك ديدن الكفار:

---

[1] ابن كثير

[2] الطبري

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ ﴾(آل عمران- ١٥٦)

وعلى هذه الأقوال جميعا، على من قال ﴿ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾(آل عمران- ١٦٨)

وعلى من قال ﴿ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا ﴾(آل عمران- ١٥٤)

وعلى من قال ﴿ لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ﴾ (آل عمران- ١٥٦)...

عليهم وعلى كل متخاذل مُخَذِّل جَزِعٍ عند نزول القضاء لائمٍ لساداته من المؤمنين النبلاء، رد الله تعالى بأجمل رد وأفصح بيان:

﴿ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ (آل عمران)

﴿ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡ ﴾ (آل عمران- ١٥٤)

﴿ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (آل عمران)

فالموت سيحصد الشجاع والجبان

غير أن الفتى يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا

وإذا لم يكن من الموت بد فمن العار أن تموت جبانا

لكن شتان بين طريقة موت كل منهما... وشتان بين الذكرى التي يتركها كل منهما... وشتان بين المآل والمصير.

حال المنافق أيام الرخاء لا تدل على نيته الجهاد:

كثيرا ما يتعذر المنافقون لأنفسهم بأنهم يتمنون في أنفسهم أن يجاهدوا لكن الفرصة غير مواتية. قال الله تعالى:

﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً ﴾ (التوبة- ٤٦)

فلو كان تمنيهم هذا صادقا لظهر في أعمالهم. لكنهم لما وهنوا أمام الشهوات مرضت قلوبهم فأصبح خروجهم خطرا على المؤمنين الصادقين، لأن المنافق الذي ضعف أمام الشهوات والشبهات لا يظن به أن يقف شجاعا أمام الحديد والنار وتطاير الأشلاء. وحري به أن يستزله الشيطان ببعض ما كسب فينكص ويخلخل صفوف المؤمنين. لذا كَرِه الله انبعاثهم:

﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (التوبة)

لذا جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم غياب النية الصادقة للجهاد أمارة للنفاق:

((من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق))[1] .

فليبرأ المؤمن لنفسه من هذه الشعبة بأن يوطن نفسه على حب الجهاد ويدعو الله تعالى أن يهيئ له سبله ويترك المعاصي التي تحول دونه وتُعَلِّقه بالدنيا ويعد له العدة. فإنه إن فعل ذلك فمات حتف أنفه بلغ منازل الشهداء بعمل قلبه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[1] مسلم

((من سأل الله الشهادة من قلبه صادقا بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه))[1]

وقال عليه الصلاة والسلام: ((إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم)). قالوا: (يا رسول الله وهم بالمدينة؟) قال: ((وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر))[2] ...

فهؤلاء تمنوا صادقين أن يجاهدوا في غزوة تبوك لكنهم ما استطاعوا لمرض أو عدم نفقة فأثابهم الله الكريم ثواب المجاهدين لصدقهم، لأنهم لما لم يجدوا ما ينفقون تولوا وأعينهم تفيض من الدمع... فهم تشتاق أرواحهم إلى ساحات التضحية في سبيل الله تعالى.

لكن الذم والعيب للمنافقين الذين توفرت لديهم أسباب الجهاد فرضوا بالدنية واختاروا مكانا لا يليق بالرجال عندما يدعو داعي الجهاد:

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ (التوبة)

فاللهم ارزقنا شهادة في سبيلك وقَبْلها نية صادقة نبرأ بها من النفاق.

---

[1] مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة

[2] البخاري

7) ثقل العبادات على النفس

وهذه أيضا من الثمار المشؤومة للشك في الدين. قال الله تعالى:

﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (البقرة)

فالصلاة ثقيلة إلا على الذين يظنون (ويظنون في القرآن بمعنى يوقنون) بيوم آخرٍ يلاقون فيه ربهم فيجزيهم على صبرهم على تكاليف الصلاة جزاء حسنا.

أما المنافقون فإنهم يشكون في هذا اليوم الآخر أو لا يصدقون به، فثقلت عليهم الصلاة لذلك. ففيها تفريغ الأوقات واستيفاء شروط صحة الصلاة والانقطاع للحظات عن الدنيا التي لا يؤمنون إلا بها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ثم آمر رجلا فيصلي بالناس ثم انطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأحرق عليهم بيوتهم بالنار))[1] .

ولماذا صلاتا العشاء والفجر؟ لأنهم لا يراهم فيهما إلا الله تعالى! هم في غيرهما من الصلوات يدفعهم إلى المساجد تجنب الإحراج مع المؤمنين، كما أنهم مستيقظون في أوقات هذه الصلوات على كل حال. فلا بأس والحال كذلك أن يصلوا... فإن كانت آخرةٌ وجنة ونار فلم "يخسروا شيئا" بصلواتهم هذه! أما العشاء والفجر، فوقتا عتمة، لا يراهم فيهما المؤمنون حضروا أم غابوا. ثم في هذين الوقتين لا بد من التضحية بالنوم. وساعة نوم أهم عند المنافق من جنة

[1] البخاري ح617 (46/3) ومسلم ح1041 (380/3)

عرضها السماوات والأرض. فالجنة عنده "محتملة" وليست باليقين الذي يضحى من أجله! ولأن يعيش في أحلام سعيدة أحب إليه من أن يقوم ليعمل في سبيل غيب يشك فيه!

((ولو يعلمون ما فيهما)) لو كانوا يوقنون بالمعاد وحسن الجزاء...لأتوهما ولو حبوا...كما هو حالهم في شأن الدنيا... يَحْبون خلفها على الأيدي والأرجل بل ويلهثون لأدنى عرض فيها.

قال عليه الصلاة والسلام في حديث آخر:

((والذي نفسي بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عَرقا سمينا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء))[1] .

فالمنافق لو علم أنه بإتيانه المسجد يكسب عظمة عليها قطعة لحم سمينة (عرقا سمينا) أو حتى ما بين ظلفي الشاة من اللحم (مرماة) لأتى العشاء! أما جنة عرضها السماوات والأرض فلا تفعل في نفسه مقدار ما تفعله قطعة لحم صغيرة!

وفي أيامنا هذه... فكر... ماذا يكون حال مسجد في حي مكتظ بالسكان تدخله عشاء وليس فيه إلا صفان أو ثلاثة...ماذا يكون حاله لو أُعلن أن بعد الصلاة "طبيخا" أو أن مبلغا من المال سيوزع على الحاضرين؟ كم من الخلق يحضر؟

حسن أداء الصلاة مقياس الإيمان من النفاق:

فالمؤمن يقوم إلى الصلاة بنشاط، مخلصا، حريصا على الصلاة في الجماعة، ويطمئن في أدائها. وأما المنافق فهذه الصفات عنده معكوسة كما يلي:

[1] البخاري

ا) المنافق لا يحرص على الجماعة:

للحديث الذي أسلفنا ولقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

((من سره أن يلقى الله غدا مسلما فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن. فإن الله شرع لنبيكم صلى الله عليه وسلم سنن الهدى، وإنهن من سنن الهدى. ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته، لتركتم سنة نبيكم، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم. وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور، ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة، ويرفعه بها درجة، ويحط عنه بها سيئة. ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق. ولقد كان الرجل يؤتى به يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف))[1].

فانظر كيف أن الصحابة كانوا يحرصون على أدائها في جماعة، حتى المريض المعذور منهم، فيأتي الجماعة متكئا على رجلين ما يستطيع أن يمشي وحده لمرضه أو كبر سنه.

ب) الكسل عن الصلاة علامة نفاق:

فإنك لتسمع من يتعذر لنفسه عن ترك الصلاة بأنه لا يجحدها وإنما هو الكسل! ولا يعلم هذا أنه أقر على نفسه بالنفاق. فهو إن نجا من الكفر على قول من لا يرى بكفر تارك الصلاة فقد وقع بتركه الصلاة كسلا في خصلة من خصال النفاق. قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ (النساء)

[1] مسلم

فقول أحدهم: أتركها كسلا إدانة له لا عذر. فالمنافقون قاموا إلى الصلاة كسالى. أما هو فقد أقعده الكسل فما قام أصلا!

جـــ) المنافق يرائي في صلاته:

فقد قال تعالى: ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾... وهذا الرياء في الصلاة مرض خفـــي يتجزأ على درجات. فقد لا يكون الدافع إلى الصلاة ابتداء الرياء عند بعـــضنا، لكنه يُحسن الصلاة إذا كان بين الناس أكثر مما إذا خلا بربه عز وجل...وهذا من الرياء. ألا ترى أن أحدنا قد يدخل المسجد فيُقدَّم للإمامة في صلاة سرية، فـــلا يكاد يزيد على المعوذتين أو سورة الإخلاص. فإذا أمَّ في جهرية خرجَتْ كنوزُ ما يحفظه من طوال السور مجودة؟! ولا يمكن أن يرضى لنفسه أن يـــؤم النـــاس في جهريتين متتاليتين بالقصار! فنسأل الله تعالى العفو.

د) المنافق لا يتأنى في صلاته:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((تلك صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان (أي: قاربت على الغروب) قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا))[1] .

وكم ترى من المسلمين إسراعا في الصلاة فلا يطمئنون بين السجدتين ولا بعـــد القيام من الركوع.

الصلاة في الجماعة سبب في تمايز المؤمن عن المنافق في الآخرة:

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة))[2].

---

[1] مسلم

[2] رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وصححه الألباني وقال الذهبي: على شرط البخاري ومسلم

فهذا النور التام هو الذي سيمكنهم من العبور على الصراط مخلفين وراءهم المنافقين بلا نور:

﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ ﴾ (التحريم-٨)

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ (الحديد)

مشوا في ظلمات الليل فأثابهم الله تعالى نورا يوم تشتد الحاجة إلى النور. وفي المقابل:

﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا ﴾ (الحديد- ١٣) يريدون التطفل على المؤمنين ونوال الجنة بلا عمل! لكن هيهات...اكتسب المؤمنون النور بمشيهم في الظلم. أما أنتم أيها المنافقون فعلى أي شيء تمنحون النور؟ ارجعوا فالتمسوه في شككم وريائكم وكسلكم...كطالب اللولؤ في البيداء... فيُضرب السور وتنجلي الحقائق وتجزى كل نفس بما كسبت..

ترك الجمعة سبب في دخول النفاق إلى القلب:

فقد قال عليه الصلاة والسلام: ((من سمع النداء يوم الجمعة فلم يأتها، ثم سمعه فلم يأتها، ثم سمعه فلم يأتها، طبع الله على قلبه وجعل قلبه قلب منافق))[1] .

والطبع على القلب شر عقاب دنيوي. فلا يعود صاحبه يستقبح معصيته. فأنى له إذن أن يتوب!

[1] أخرجه البيهقي وأبو يعلى وصححه ابن المنذر وحسنه الألباني

المنافق يستثقل عبادة الزكاة:

قال الله تعالى:

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (التوبة)... **وقال تعالى:**

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (التوبة)

ولا غرابة...فالصدقة عند المنافق خسارة محضة إذ هو لا يؤمن بجزائها الأخروي. لذا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل الصدقة برهانا على صحة الإيمان فقال:((الصدقة برهان))[1] .

وكما أنها برهان على الإيمان فإنها تزيده كذلك. فالمؤمن حين يهم بإخراج الصدقة يستجمع إيمانه ويستذكر الآخرة ليقاوم تخذيل الشيطان. فيزداد إيمانا وثباتا بذلك. قال الله تعالى:

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ ﴾ (البقرة- ٢٦٥)

كيف تتخلص من استثقال العبادات؟

بالإكثار من ذكر الله تعالى. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب و من لا يحب، و لا يعطي الإيمان إلا من أحب. فمن ضن بالمال أن ينفقه، و خاف العدو أن يجاهده، و هاب الليل أن يكابده، فليكثر من قول: سبحان الله، و

[1] مسلم

الحمدلله، و لا إله إلا الله، و الله أكبر))[1]. فالبخل بالمال والقعود عن الجهاد واستثقال قيام الليل أقرب إلى النفاق منه إلى الإيمان. وفيه شيء من نسيان الله تعالى. ألم تر إلى قوله عز وجل:

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾(التوبة- ٦٧)

فلما نسوا الله ثقل عليهم الإنفاق في سبيله.

فمن أكثر من ذكر الله تعالى عالج هذا النسيان فنشطت نفسه للإنفاق والجهاد وقيام الليل.

[1] صحح إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد والألباني في السلسلة الصحيحة (213/6)

8) محبة أن يُمدح ويُحمد على أشياء لم يفعلها أصلا!

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رجالا من المنافقين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا إذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا قدم النبي صلى الله عليه وسلم اعتذروا إليه، وحلفوا وأحبوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا " فنزلت: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾(آل عمران-188)

فما اكتفى المنافق بأن تكاسل عن الطاعات، بل يحب أن يمدحه الناس على أشياء لم يفعلها أصلا!

9) تثبيط الناس عن الطاعات والاستهزاء بالعاملين

قال تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ (التوبة- ٦٧)

فأيما رجل دعا إلى منكر وثبط عن طاعة فليعلم أنه تلبس بصفة من صفات المنافقين. أيما شاب دعا صاحبه إلى معصية فليعلم أن هذا نفاق!

وقال تعالى في وصف المنافقين:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ (التوبة)

فهؤلاء المنافقون تخاذلوا عن الإنفاق لتجهيز جيش العسرة لكنهم سارعوا إلى اللمز في المؤمنين! قعدوا يتربصون: فمن جاء بصدقة كبيرة قالوا إنما فعلها رياء، ومن جاء بصدقة صغيرة على فقر حاله ينتزعها من أفواه أولاده نصرة لدين الله سخروا من صدقته الصغيرة في أعينهم الكبيرة في ميزان الله تعالى.

وهكذا المنافق! يرى نفسه القزمة الوضيعة بين الجبال الشُّم...ولا يسعفه شكه وكسله ليرتقي إلى قممهم ويبني مجدا كالذي بَنَوه...فلا يرى سبيلا إلا أن يتطاول على أسياده ويزدريهم ليتزلوا إلى مستواه في أعين الناس.

10) الشك في وعد الله بالنصر والتمكين لهذا الدين:

وهذه بلية عظمى تشل إرادة المنافق عن نصرة الدين. فهو يرى أن قضية الـــدين خاسرة. فعلام يتعب من أجلها؟! قال الله تعالى:

﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ﴾ (الفتح-6)

فالمنافق لما كانت حساباته أرضية ورأى قوة الكفار وانتفاشهم ظن أن الإسلام هالك وأن الله تعالى لن ينصر دينه. وهذا ظن سوء يمقته الله. لذا كان جزاؤهم:

﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ ﴾ (الفتح)

كلمات يظهر فيها شدة غضب الله على من أساء الظن فيه تعالى بأن يظن أن الله يخذل دينه ولا يظهره، وأن رسول الله وطائفة المؤمنين يهلكون في الحرب فلا تقوم للإسلام بعدهم قائمة. قال تعالى بعدها بآيات:

﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ (الفتح)

فالمنافق ينظر إلى الكفار فيرى لديهم قوة مادية ينخلع لها قلبه، ثم يلوي عنقه فينظر إلى المؤمنين فلا يجد لديهم إلا عدة ضئيلة هي غاية ما استطاعوه، لكنهم مع ذلك مهللون مكبرون مستبشرون موقنون بنصر الله. فيضحك المنافق منهم قائلا: هؤلاء المساكين يعتقدون أن دينـــهم ينـــصرهم علـــى الـــدبابات والطـــائرات والصواريخ!:

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الأنفال)

الشك في وعد الله سبب لكثير من صفات النفاق الأخرى:

فالشاك في نصر الله تنهزم نفسيته وتخور عزيمته وتنشل إرادته... خاصة إذا انضم إليه شك في اليوم الآخر الذي ينصر فيه الله عباده على أعدائه تمام النصر:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ (غافر)

فتراه بعد ذلك ينكص عن الجهاد...فعلام يجاهد إن كان الإسلام هو الخاسر عنده

وتراه يكذب على المؤمنين ليعرضوا عنه ويدعوه ينسل من المواجهة مع الكفار

وتراه يسارع في طاعة الكفار على حساب دينه...فهم الأقوى في نظره

وتراه يخلف العهد مع الله تعالى... فهو كما شك في قدرة الله على نصر الـــدين يشك في قدرة الله على عقاب من نقض العهد.

أفعال سوء هي جميعا ثمار مشؤومة للشك في نصر الله.

قال الله تعالى واصفا حال المنافقين أيام الخندق:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ (الأحزاب)

فإلام قادهم هذا الاعتقاد الفاسد:

1) ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ **...فنكوص عن الجهاد**

2) ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾ ... فكذب على المؤمنين

3) ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾... فمسارعة في الكفر وطاعة الكفار

4) ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾... فإخلاف عهد مع الله تعالى.

قال ابن كثير في وصف حال المنافقين في غزوة الأحزاب:

(أما المنافق فنجم نفاقه. والذي في قلبه شبهة أو حسكة، ضعُفَ حاله فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه لضعف إيمانه وشدة ما هو فيه من ضيق الحال) اهـ.

وصدق. فقد قال معتب بن قشير المنافق: (كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط)[1] .

المؤمن لا يشك في نصر الله:

فالحبيب المصطفى كان يبشر المؤمنين بفتح البلاد وهو في هذا الوضع الصعب في يوم الخندق، يقينا بوعد الله. لذا قال الله في سورة الأحزاب بعدما ذكر حال المنافقين:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب) ...وقال في وصف المؤمنين الصادقين:

﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾

[1] سيرة ابن هشام

فلا يأس مع الإيمان. ألم تر إلى قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام:

﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (الحجر)

وقوله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام:

﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (يوسف)

وكذا قال ابن مسعود تلميذ محمد صلى الله عليه وسلم:

((الكبائر: الإشراك بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله)) أي: اليأس من نصر الله.

فهذا الدين منصور...يضعف أهله لفترة من الزمن بمقدار تفلتهم منه. لكنه لن يُجتث ولن يندرس. ولن تهلك أمة محمد صلى الله عليه وسلم. والذي يحاول القضاء على الإسلام أسْفَهُ ممن ينقطع جوفه ويحمر وجهه وهو ينفخ على الشمس ليطفئ نورها:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾(الصف)

فهذا الدين منصور. قال عليه الصلاة والسلام: ((بشر هذه الأمة بالسناء والتمكين في البلاد والنصر والرفعة في الدين. ومن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا فليس له في الآخرة نصيب))[1] . فالذي يعمل بعمل الآخرة من أجل الدنيا كأنه أحس بأن قضية الدين خاسرة فلا حاجة إلى التضحية من أجلها. فقال: (إذن أكسب بهذا العمل مكانة عند الناس لأنال شيئا بدلا من الخروج صفر اليدين)!

[1] قال الألباني: إسناده صحيح على شرط البخاري

وقال عليه الصلاة والسلام: ((ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنـــهار. ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين. بعز عزيز أو بِذُل ذليل: عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يُذل به الكفر))[1] .

وقد بشر عليه الصلاة والسلام بفتح القـــسطنطينية ثم روميـــة (رومـــا) في الحديث الذي قال فيه الذهبي (على شرط البخاري ومسلم). أما قسطنطينية فقد فتحت كما بشر عليه الصلاة والسلام، وبعد **800** سنة من بشرى النبي. وأمـــا روما فلم تُفتح بعدُ. فنحن نوقن بأن ذلك كائن وأن المسلمين عندما يعز أمـــرهم فلن تقتصر العزة على استرداد ما احتل من أراضيهم. بل سيعودون إلى مبـــادأة الكفار بالقتال ونشر سلطان الإسلام في ربوع الأرض. فاللهم اجعل لنا من ذلك نصيبا.

فإلى كل من لا زال في شك من وعد الله بعد هذا كله:

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾... أي: من كان ســـيئ الظن بالله، فيظن أن الله سيخذل دينه ونبيه في الـــدنيا والآخـــرة... ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾... فليربط حبلا على عنقه ويربط طرفه الآخر بسقف بيتـــه (فكل ما علاك فأظلك فهو سماء)...

﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ ﴾ (الحـــج) ...ليـــشنق نفسه... فإن كان وعد الله لا يشفي صدر المنافق من الشك والهلع ولا يقطع أمل الكافر في القضاء على الإسلام فلعل قطع الأعناق يفي بالغرض!

[1] رواه أحمد وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم وصححه الألباني في الصحيح (2/1)

إن ربي لطيف لما يشاء:

فإن كنت يا أخي من المؤمنين لكنك يهولك ما ترى من انتفاش الباطل وتسلط أهله ولا يستوعب عقلك كيف يمكن أن ينصر الله دينه مع أن الأسباب المادية ليست في صالح الدين البتة فأقول لك ليطمئن قلبك:

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ (يوسف)...أي: إذا أراد أمرا قيض له أسبابا وقدره ويسره بطريقة لطيفة لا تخطر بالبال. فمن كرب شديد إلى فرج عجيب، ومن ضعف إلى عزة وتمكين.

فهذه الآية حكاية عن يوسف عليه السلام الذي نقله الله من ظُلمة السجن إلى كرسي حكم يتبوأ من الأرض حيث يشاء برؤيا أُريَها الملك.

إن ربي لطيف لما يشاء

وهو سبحانه بعد ذلك جعل فرعون يلتقط موسى من تابوت في البحر ويربيه في بيته ليكون هلاك فرعون وجنوده على يد موسى عليه السلام

إن ربي لطيف لما يشاء

وهو سبحانه الذي ألقى الإيمان في قلب نعيم بن مسعود يوم غَدَرَ بنو قريظة وأُتي المؤمنون من فوقهم ومن أسفل منهم فخَذَّل بين المشركين واليهود... ثم أرسل الله ريحا وكفى المؤمنين القتال

إن ربي لطيف لما يشاء

وهو سبحانه الذي جعل "فاطميي" مصر يقتتلون فيستنجد بعضهم على بعض بنور الدين زنكي فيرسل صلاح الدين، لتبدأ رحلة تطهير مصر منهم وتنضم مصر المعادية إلى دولة صلاح الدين فيحارب بها الصليبيين.

إن ربي لطيف لما يشاء

وهو سبحانه الذي جعل التتار يبيعون سيف الدين قطز في السبي بدراهم معدودة ليكون هلاكهم على يديه.

إن ربي لطيف لما يشاء

وهو سبحانه الذي جعل الجيش الروسي يدرب أفرادا من الشيشان فيقودون بعد ذلك الجهاد الشيشاني على الروس ويمرغون أنف روسيا في التراب.

إن ربي لطيف لما يشاء

وهو سبحانه الذي جعل أمريكا تعين الأفغان على حرب روسيا ثم هانحن نراها قد ساخت قدماها في رمال أفغانستان، يكيل المجاهدون الأفغان لوجهها الصفعات...نسأل الله تعالى أن يجعل قاصمة الظهر لأمريكا في أرض أفغانستان...وهو ما نستبشر به إن شاء الله تعالى...

إن ربي لطيف لما يشاء

وغير ذلك كثير. يمكر الكافرون فينقلب مكرهم عليهم، ويكون هلاكهم فيما ظنوه قُوَّتهم:

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾(فاطر- ٤٣)

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأنفال)

يكيدون كيدا بشريا هزيلا في مقابل كيد جبار السماوات والأرض سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ ﴾ (الطارق)

ينفقون أموالهم في الصد عن سبيل الله فتنقلب عليهم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾(الأنفال- ٣٦)

فيا أخي المؤمن لا تشغل نفسك بـــ"كيف يمكن أن ينصر الله دينه؟" ولكـــن اشغل نفسك بأن تكون من الطائفة المنصورة العاملة لهذا الدين... فيكون لـــك شرف الإسهام في نصر الأمة ولو كان هذا النصر بعد مماتك. جعلني الله وإيـــاك منهم.

11) الحرص على الدنيا والتسخط عند البلاء

فالمنافق يشترط أن يجلب الإسلام له منفعة دنيوية عاجلة ليرضى بـــه دينـــا. كيف لا وحدود بصيرته تقف عند الحدود الدنيا للدنيا، والجزاء الأخروي لـــيس في حساباته لأنه يشك في الآخرة أصلا. قال تعالى واصفا المنافقين:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (التوبة)...

وكم قال موتوروهم للنبي صلى الله عليه وسلم: (اعدل فإنك لم تعدل)! كم مرة جرحوا قلبه الكبير بهذه الكلمات الخسيسة التي ما قالوها إلا جـــشعا وشـــرها وتطلعا إلى ما ليس لهم بحق... وهكذا المنافق، يرضى عن الدين بمقدار ما يتحقق له من متاع دنيوي، لأنه ما أسلم طمعا في رضوان الله وإنما أضـــمر في قلبـــه أن يتخذ الإسلام سُلَّما إلى متاع الدنيا.

– روى البخاري عن ابن عباس أنه قال في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾

(الحج)...قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاما ونتجت خيلـــه قال: (هذا دينٌ صالح)، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال: (هذا دينُ سوء).

فالمتعوس اعتبر تحقُّق متاع الدنيا دلالة على صحة الإسلام، فـــإذا تعـــرض لابتلاء ضاع منه ما تأمل واعتبر ذلك دلالة على بطلان الإسلام!! فأي ضـــيق في الأفق ومحدودية في النظرة!!

وكم رأينا في واقع حياتنا من أناس يتسخطون على ربهم عند أدنى بلاء، وتسوء منهم بالله الظنون. فهؤلاء هم المدعو عليهم بالتعاسة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة؛ إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط. تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش))[1] .

فعبد الدرهم والدينار يتنقل بين المبادئ والمنهجيات بحثا عن المال. وقد لا ينسلخ من الإسلام صراحة بل يغير ويبدل بهواه و يزعم أن ما هو عليه موافق للإسلام... يلهث وراء بريق الدرهم على يديه ورجليه كالكلب، فلعل الأشواك تدخل في يديه ورجليه في سعيه هذا...وإذ ذاك فـ(لا انتقش)...أي لا خرجت منه الشوكة كما دعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي المقابل يدعو النبي صلى الله عليه وسلم في تتمة الحديث للمؤمن عبدِ الله، لا عبدِ الدنيا فيقول:

((طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يُشَفَّع))

فقد بدت علامات التضحية في سبيل الله في شعث رأس هذا المؤمن وتغبُّر قدميه وإمساكه بعنان الفرس ليتوجه به حيثما سمع نداء الجهاد، لكنه مع ذلك لم ينل شيئا من الدنيا، ولا حتى الاحترام...فهو إن استأذن أميره في الجهاد لم يأذن له، وإن جاء شفيعا لأحد رده أميره مخذولا ولم يلتفت إليه ولا لشفاعته...سوءَ تصرف من هذا الأمير...فلعله يأتي الأمير فيقول له: سمعت أن أحد أولادي مريض فأذن لي أن أغادر المعسكر للاطمئنان عليه ثم أعود، فيرفض الأمير... ولعل جنديا يسيء فَيَهِمُّ الأمير بتعزيره فيطلب الجندي شفاعة صاحبنا المؤمن لأنه

---

[1] البخاري ح2673 (11/10)

ظن أن تضحيات المؤمن جعلته وجيها عند الأمير، فيأتي صاحبنا ليشفع فإذا بالأمير يرفض شفاعته ويعزر الجندي ويكسر قلب المؤمن...

فهل دفعه ذلك إلى أن ينقلب على عقبيه ويترك الجهاد والتضحية؟ لا بل على العكس، يمتثل الأوامر...فإن أمره الأمير بأن يسهر والناس نيام للحراسة استجاب ووقف حارسا أمينا لجيش المسلمين...وإن أمره الأمير أن يتأخر في ذيل الجيش (الساقة) يجمع المتاع الساقط من أفراد الجيش ويساعد من أبطأ لِعَطَبٍ فيه أو في ركوبته امتثل أمر الأمير، مع أن الأمير لم يكرمه في شيء... وليس ذلك كله عن نقص عزة في نفسه ولكن لأنه لا يتعامل مع الأمير وإنما مع رب الأمير سبحانه وتعالى...ولا يبتغي الأجر والإكرام من الأمير وإنما ابتغى وجه ربه الأعلى...فلسوف يرضى...فالنبي صلى الله عليه وسلم دعا له بـ(طوبى).

هكذا المؤمن، يقدم كل شيء، ويضحي بكل شيء، ولا يسخط إن لم يعجل الله له الجزاء في الدنيا وادخر له أجره كاملا ليوم القيامة...

أما المنافق، فلا يريد أن يقدم شيئا إلا إذا كان المقابل الدنيوي مضمونا! قال تعالى:

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ (الفتح ١٥)

فهؤلاء تخلفوا عن عمرة الحديبية التي وعد الله من شهدها بمغانم خيبر...فلما علموا أن خيبر ستُفتح على المسلمين سارعوا يطالبون بالسماح لهم أن يشهدوا غزوة خيبر! لماذا؟ لأن فيها الغنيمة! أما في الحديبية فلم يك ثم غنيمة دنيوية موعودة فما حرصوا عليها.

فرد الله تعالى عليهم: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾

فالله وعد مغانم خيبر لأهل الحديبية خاصة. ثم قال تعالى:

﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ﴾

...سيرمون المؤمنين بتهمة أنهم يمنعونهم من الخروج إلى خيبر استئثارا بالدنيا عنهم فرد الله تعالى بأن المخلفين: ﴿ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾... ثم أعطاهم الله تعالى فرصة أخرى ليعدلوا نواياهم ويبرهنوا على استعدادهم للتضحية دون ضمان المقابل الدنيوي فقال:

﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾... قال الطبري في تأويل الأجر الحسن أنه الجنة. وكأن الله تعالى لم يضمن الغنيمة الدنيوية في هذه الفرصة للمخلفين كما ضمنها في خيبر للمؤمنين. فإن كان هؤلاء المخلفون يرضون بالجنة برهنوا على ذلك بطاعة الله في النفير إلى القوم أولي البأس الشديد.

﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾ (الفتح)

وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بائعي الدين من أجل الدنيا بقوله:

((بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا))[1] .

عدم الاستعداد للتضحية في سبيل الله:

ومن كان هذا حالَه في اشتراط المنفعة الدنيوية ليرضى بالإسلام دينا فلن يكون على استعداد للتضحية في سبيل الله تعالى. قال الله تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ (العنكبوت- ١٠)...فدعوى الإيمان باللسان سهلة. لكنهم لما أوذوا في سبيل الإيمان الذي ادعوه تزلزلت قلوبهم وتركوا الدين الذي ادعوه لأن قلوبهم

[1] مسلم ح 169 (297/1)

الضعيفة رأت هذا الأذى الدنيوي مساويا لعذاب الله الشديد في الآخرة، فاختاروا الردة ليسلموا من أذية الدنيا ولو أدى ذلك بهم إلى عذاب الله.

وَلَيْتَهم وقفوا عند هذا الحد، بل: ﴿ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ﴾(العنكبوت- ١٠)...فإن ارتفعت الأذية وتحقق للمسلمين نصر عاد هؤلاء المنافقون إلى دعوى الإيمان لينالوا نصيبا من هذا الخير الدنيوي! يخادعون الله والذين آمنوا... فقال الله تعالى:

﴿ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (العنكبوت)

فلا تزال البلايا تصيب الناس ليُعرف بها المؤمن من المنافق. قال الله تعالى:

﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ (آل عمران- ١٧٩)

والمنافق خبيث ليس من أهل التضحية. فلا يسقط عند الاختبارات الصعبة فحسب، بل عند أدنى بلاء...

رأيتُ سفيها شاب شعره سُرق حذاؤه في المسجد إثر صلاة جمعة فصاح و"هدد" بأنه لن يصلي بعد اليوم في المساجد...ولا أدري يهدد مَن! أهو بذلك يهدد السارق؟ فالسارق لا يهمه أصلى الناس في المساجد أم لم يصلوا إلا ليسرق أحذيتهم...أم هو يتوعد الله تعالى؟! فالله هو الغني الحميد، لا ينقص من ملكه شيئا أن يجتمع الناس على أفجر قلب رجل فيهم... ولكن المنافقين لا يفقهون.

دخلت النار امرأة في هرة حبستها، ورُب أناس قد يدخلون النار في حذاء لم يصبروا على فقدانه! ولا أدري! إن كانوا لا يتحملون أن يبذلوا حذاء فكيف يبذلون أنفسهم في سبيل من قال:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَ﴾(التوبة- ١١١)

ومن في قلبه نفاق لا يسقط عند بلاء الضراء فحسب، بل إنه لا يصبر على فوات ما يراه مصلحة دنيوية له، وإن كان في هذه المصلحة محرم، كالقرض الربوي وبيع السلع المحرمة. فإذا دعوته إلى تركها فجوابه المعد على الفور: (ما البديل؟)! البديل الصبر على فوات هذه المصلحة...البديل التقنُّع بما عند الله تعالى...ولكن المنافقين لا يفقهون.

ولينظر كل منا في نفسه...هل إذا قيل له كُفَّ عن هذا الحرام قال نعم، ولا بد من التضحيات. أم يقول ما البديل فيكون في قلبه نفاق؟

وأود هنا أن أنقل عبارات عظيمة لابن القيم يصف بها داء سوء الظن بالله، وهذا الداء قرين النفاق في قلوب لم تعرف حق ربها عز وجل، فافترضت أن لها على الله "واجبات". فإن أُنقصت شيئا من هذه الـ"واجبات" ساء ظنها بربها، وخرج ما كان في هذه القلوب من قيح وصديد وحثالة فظهر على فلتات الألسن. ولا والله لا يكون هذا من قلب صفا وده لربه وعَظَّم قدره.

قال ابن القيم:

(فأكثر الخلق بل كلهم إلا من شاء الله يظنون بالله غير الحق ظن السوء فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله ولسان حاله يقول ظلمني ربي ومنعني ما أستحقه... وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به. ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها رأى ذلك فيها كامنا كمون النار في الزناد فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تعتبا على القدر وملامة له

واقتراحا عليه خلاف ما جرى به وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا فمـــستقل ومستكثر. وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك؟

فإن تَنجُ منها تنجُ من ذي عظيمة وإلا فإني لا أخالك ناجيا

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع وليتب إلى الله تعالى وليستغفره كل وقت من ظنه بربه ظن السوء وليظن السوء بنفسه التي هي مأوى كل سوء ومنبع كل شر... فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين وأعدل العـــادلين وأرحـــم الراحمين الغني الحميد الذي له الغنى التام والحمد التام والحكمة التامة المنزه عـــن كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه... وأفعاله كذلك كلها حكمة ومصلحة ورحمة وعدل وأسماؤه كلها حسنى [1]

فلا تظـــنُنْ بربك ظن سوء فإن الله أولى بالجـــــميل
ولا تظنن بنفسك قط خيرا وكيف بظالم جان جهول
وقل يا نفس مأوى كل سوء أيرجى الخير من ميت بخيل
وظن بنفسك السوآى تجدها كذاك وخيرها كالمستحيل
وما بك من تقى فيها وخير فتلك مواهب الرب الجليل
وليس بها ولا مـــنها ولكن من الرحمن فاشـــكر للدليل

فقول ابن القيم: (فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده) يعني بـــه أن من عنده هذه الصفة النفاقية إن وُضع على المحك بتعرضه لاختبار فإن سوء ظنـــه بالله وجزعه وقلة صبره ستظهر على صفات وجهه وفلتات لسانه.

[1] من زاد المعاد بتصرف

أما المؤمن فإنه يثبت عند الشدائد، وهذا الثبات رزق يرزقه الله من كان يتقيه في أيام الرخاء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)).

والمنافقون ما اتقوا الله في رخائهم فما ثبتهم عند الشدة.

نسأل الله الرضا عند القضاء والثبات في الأمر وإذا أراد فتنة في القوم أن يقبضنا إليه غير مفتونين.

12) الجبن والقبول بعيشة الذل

لا عجب أن يجبن المنافق. فشكه في الله وفي الدار الآخرة يمنعه من استمداد العزة من رب العزة سبحانه وتعالى:

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (المنافقون)

والمنافق في ذلك أذل من الكفار والمبطلين؛ فإنا نرى الكفار يدافعون عن مبادئ ويوهمون أنفسهم بصحتها فتكون- على بطلانها- رمزا لهم يستمدون منه القوة. أما المنافق فلا مبدأ له...فلا هو كسب العزة الحقيقية في كنف الله عز وجل، ولا العزة الموهومة من المبادئ الباطلة. ولذا تراه يعيش حالة رعب مستمرة، يظن في كل لحظة أنه مأخوذ بجريرة السوء الذي تنطوي عليه نفسه:

﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ (المنافقون- ٤)

تماما كالجاني المخفي لجريمته يسير في الطرقات وكلما سمع صيحة ظنها النهاية.

والمنافق ممزق النفس...فهو يعيش بين المسلمين ولا يأمنهم أن يكشفوا حاله فيحلف لهم أنه معهم قلبا وقالبا:

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ (التوبة)... أي: يخافون منكم أيها المؤمنون. ثم قال تعالى:

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

...أي: يتمنى المنافقون لو يفرون من المؤمنين إلى حصن أو مغارة في جبل أو سرداب أو نفق في الأرض...كل هذا ليتخلصوا من حالة الذعر المستمر...لكنهم لم يفروا...لماذا؟ لأن معايشهم وأموالهم وأهليهم في الأماكن التي فيها

المؤمنون...ولذا تتمزق نفس المنافق بين البحث عن ملاذ يأمن فيه من الناس و في المقابل الحرص على الدينار الذي يعبد والدنيا التي من أجلها يعيش.

وتأمل معي حرص المنافق على أية حياة...حتى ولو حياة ذل ومهانة...لا بأس، المهم أن يعيش! حتى ولو في مغارة أو مُدَّخل (أي سرداب) مظلم تحت الأرض...هناك مع الخفافيش في الظلام... لا بأس...فلقد تعَوَد على حبك المؤامرات على المسلمين في الظلام كالخفافيش، وتعود على مصارحة إخوانه المنافقين بشكه في الدين واستهزائه بالمؤمنين خفية كالخفافيش...وقلبه مظلم من النفاق كظلمة الأنفاق...فلم لا يعيش مع الخفافيش؟!

ثم تأمل معي حال هذا المنافق الذي لم يبق مع المسلمين إلا حرصا على الدنيا...تأمل حاله إذا أُخبر بأن عليه الاستعداد لخطر من الخارج يدهم المسلمين! سيزداد تمزق المسكين وحيرته. قال الله تعالى واصفا حالهم في هذه اللحظات:

﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ (الأحزاب- ١٩)

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ (محمد- ٢٠)

ذعر ما بعده ذعر! يصيب وقتَ التضحيات كلَّ من مرض قلبه بالشك في الدين والحرص على عيشة الذل.

ضريبة الذل:

فليعلم كل من وجد في نفسه جبنا ومذلة أنه مشوب بالنفاق...وهذا للأسف حال كثير من المسلمين اليوم. يحرصون على حياة...أية حياة... ويخافون من أداء

حقوق الله في موالاة المؤمنين والتبرؤ من الكافرين والمنافقين وإظهـــار العـــداوة لهم...كل هذا حرصا على الحياة، وبئست الحياة حياة الذل:

ذَل من يغبط الذليل بعيش رُبَّ عيش أخف منه الحِمام

من يَهُن يسهلِ الهوان عليه ما لجرح بمـــــــيت إيلام

لا يُدرك هؤلاء أنهم إن لم يؤدوا ضريبة الكرامة مأجورين عزيزي النفوس فـــأنهم سيؤدون ضريبة الذل لا محالة موزورين ذليلين. ومن أجمل ما قرأت في ذلك قول سيد قطب رحمه الله:

(إن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة. إن ضريبة الذل أفدح في كـــثير مـــن الأحايين. وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظـــة لا تطاق، فتختار الذل والمهانة هرباً من هذه التكاليف الثقال، فتعيش عيشة تافهـــة رخيصة، مفزعة قلقة... تخاف من ظلها وتفرق من صداها... يحسبون كل صيحة عليهم، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة.

هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة... إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة... يؤدونها من نفوسهم ويؤدونها من أقدارهم، ويؤدونها من سُمعتهم ويؤدونها من اطمئنانهم، وكثيراً ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون.

إنه لابد من ضريبة يؤديها الافراد وتؤديها الجماعات وتؤديها الشعوب...فإما أن تؤدى هذه الضريبة للعزة والكرامة والحرية، وإما أن تؤدى للذلـــة والمهانـــة والعبودية. والتجارب كلها تنطق بهذه الحقيقة التي لا مفر منها ولافكاك) اهـــــ (في ظلال القرآن)

ومن هنا فإن من أكبر الجنايات على الإسلام محاولة إيهام الناس بأن دينـــهم يرضى لهم الذل...وهذه الجناية كثيرا ما تُمارس هذه الأيام من أناس أوتوا نصيبا من كتاب الله والعلم بأحاديث سيد الشرفاء صلى الله عليه وســـلم. حـــتى إن

السامع لهم ليُخيل إليه أنهم اطلعوا على وحي نسخ آيات وأحاديث العزة! وأصبحوا يصفون مواقف العزة والقوة في إنكار المنكر بالـ"عنتريات الجوفاء".

فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين:

إن اللغة الكسيرة الذليلة التي يُربَّى عليها المسلمون في أيامنا أماتت روح كثير من الآيات والأحاديث في قلوبهم. فأين قوله تعالى:

﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ (المائدة- ٤٤)

وإن لم يكن ديننا دين العزة والشجاعة فما معنى قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ (آل عمران)

وإن لم نكن مأمورين بالشجاعة والشدة في إنكار المنكر فلمن قوله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾(الأحزاب-٣٩)

وإن كانت إقامة الشعائر كافية مع ذل النفوس فما معنى قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾(التوبة- ١٨) ...وإلى كل من ادعى أنه على منهاج النبوة...إياك أن تُلبس منهاج النبوة ثوب المذلة بلغتك الكسيرة، فسيد الشرفاء صلى الله عليه وسلم هو القائل:

((ألا لا يمنعن أحدَكم رهبةُ الناس أن يقول بحق إذا رآه أو سمعه. فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم))

وسيد الشرفاء صلى الله عليه وسلم هو الآمر بإنكار المنكر وجهاد المبدلين باليد واللسان والقلب...وهو النافي الإيمان عمن لم يجاهدهم...نعم لهذا كله قواعد، لكن دون إماتة للنصوص وإيهام أن الله يرضى لأوليائه الذل سبحانه،

ودون إشاعة مبدأ (الدنية ولا المنية)، ودون إيثار منهج السلامة على سلامة المنهج، ودون أن نتيح الفرصة للمبطلين أن يصفوا ديننا بأنه "أفيون الشعوب" بتثبيطها عن رفض الذل، ودون أن ننحط بالمسلمين ونقتل مروآتهم إلى حد نتمنى فيه نخوة أبي طالب والمطعم بن عدي[1]

فالأمن وقوة القلب حق حصري للمؤمن. قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (الأنعام)

وللمنافق الذلة والخور والجبن.

وقد استغل أعداء الإسلام هذا الجبن في نفوس المسلمين كما رأينا في نشر صور السجناء العراقيين في سجن (أبو غريب)، لتكون رسالة إلى كل من تدفعه نفسه إلى طلب الكرامة أن هذا مصير من يطلبها عندنا، وليعطوا ذريعة لرؤساء المسلمين أمام شعوبهم في قمع من يطالب بنصرة إخوة الدين ومحاربة الصليبيين...بدعوى تجنيب شعوبهم الويلات...وكأن من يسالمهم يأمن شرهم...

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ ﴾ (البقرة- ٢١٧)

[1] راجع مادة (لا تدفنونا أحياء! صوتا أو كتابة من موقع **www.al-furqan.org**

13) مداهنة السلاطين

وهذا الخُلُق الرخيص هو أول ما يتبادر إلى أذهان الناس عندما تذكر كلمة (منافق)...

عن ابن عمر: أنه رأى الناس يدخلون المسجد فقال: من أين جاء هؤلاء؟ قالوا: من عند الأمير. فقال: إن رأوا منكرا أنكروه، وإن رأوا معروفا أمروا به؟ فقالوا: لا. قال: فما يصنعون؟ قالوا: يمدحونه، ويسبونه إذا خرجوا من عنده! فقال ابن عمر: (إن كنا لنعد النفاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما دون هذا!)[1] .

وهذا في أيام ابن عمر، أيام كان الولاة معظمين لشعائر الدين مقيمين له بالجملة لا يتخذون مرجعية معلنة غيره، وإنما ظلموا في بعض المواطن. فكيف لو رأى ابن عمر منافقي هذا الزمان الذين يداهنون سلاطينا لا يقيم للدين حرمة، بل يُسب الله ورسوله في بلادهم ويُطعن في الدين وتُنحى الشريعة عن أحكامهم...ومع هذا ترى المنافقين يسبحون بحمدهم ويعظمونهم وينظمون لهم شعرا ونثرا!

والذي في قلبه نفاق يظن أنه على خير ما دام يكره منكرات السلاطين في نفسه، وأن هذا يعفيه من جريرة إقراره لباطلهم في وجوههم، وما درى أنه بذلك شر الناس كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله:

((تجدون الناس معادن: خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا. وتجدون خير الناس في هذا الشأن أشد له كراهية وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه))[2] .

---

[1] رواه الذهبي في سير أعلام النبلاء وروى نحوه أحمد في مسنده وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط

[2] البخاري واللفظ له ح3243 (314/11) ، صحيح مسلم ح4774 (89/13)

فكما يدل الحديث، قد ترى إنسانا شديد العداوة للإسلام، لكن عنده نبـــل ولا يطيق أن يناقض قناعاته طويلا. ومن هؤلاء النبلاء عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل، الذين عندما دخلوا في الإســـلام أخلصوا وجاهدوا في الله حق جهاده. أما المنافق الذي يتكلم أمام كل قـــوم بمـــا يناسبهم فخبيث لا نبل عنده.

المؤمن لا يداهن أحدا:

روى الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((اسمعوا! هل سمعتم؟ أنه سيكون بعدي أمراء، فمن دخل عليهم فصدَّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه وليس بوارد علي الحوض. ومـــن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه، وهو وارد علي الحوض))[1] .

وعندما سأله رجل: أي الجهاد أفضل، أجاب عليه الصلاة والسلام: ((كلمة حق عند سلطان جائر))[2] .

---

[1] رواه أحمد والترمذي والنسائي وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (**268/2**)

[2] رواه النسائي وصححه الألباني في الصحيحة (**490/1**)

14) قلة الأدب مع الله ومع رسوله

فهم المعنيون بقوله تعالى:

﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (التوبة)

وهم الذين حكى الله ما قالوا:

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾(المنافقون-٨)

يُعرِّضون بالنبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين.

وهم الذين يُسرُّون لبعضهم بالكفر ثم: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ (التوبة- ٧٤)

وقد روى ابن جرير وابن كثير بأسانيد عديدة في سبب نزولها روايات متقاربة منها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب فقال رجل من المنافقين: (لئن كان صادقا فنحن شر من الحمير). فقال له زيد بن أرقم رضي الله عنه: فهو والله صادق ولَأَنت شر من الحمار . ثم رفع ذلك إلى رسول الله فجحده المنافق فأنزل الله تعالى الآية تصديقا لزيد.

وإن من تلبس بصفات المنافقين في أيامنا هذه تراه قليل التعظيم لله تعالى وآياته ورسوله، حتى أنه قد يحكي الطُّرَف لإضحاك الناس وفيها أن الله قال لجبريل وقال جبريل لله...على سبيل الطرفة! وقد يستخدم آيات الله في غير موضعها لإضحاك الناس كذلك. وما أقربه بذلك ممن وصفه الله تعالى بقوله:

﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ﴾ (الجاثية- ٩)...

فهو لا يحفظ من القرآن إلا القليل، وما حفظه تراه يستخدمه أول ما يستخدمه في طُرَفه ولِيُظهر خفة ظله!

وقد يستهزئ بسنة من سنن النبي صلى الله عليه وسلم، أو بمن يطبقها مع أنه شخصيا مفرط فيها، كاللحية والسواك...وكم من الناس يفعل هذا كله وهو يصلي ويصوم ويزعم أنه مسلم!

ولا أرى أولى من هذا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم:

((وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم))[1] .

وشرٌّ منه من زاد على صفات المنافقين فسب الله أو الدين صراحة، وهؤلاء لن أستطرد في الحديث عنهم في هذا الموضع لئلا يُظن أنهم منافقون، بل هم كفار مرتدون بإجماع الأمة...تجري عليهم أحكام الكفار في الدنيا بخلاف المنافقين. ولا ينفعهم في ذلك ادعاؤهم الإسلام أو تعذرهم بالغضب...وهم شر من كفار مكة الذين كانوا يعظمون الله ويدَّعون أن أصنامهم تقربهم إلى الله زلفى. لكني أذكر هذا الصنف الخبيث للإشارة إلى أن هذه المرحلة المنحطة موجودة في الكثيرين ممن ينتسبون زورا إلى أمة الإسلام...وأصلها الذي تفاقمت عنه هو هذه الصفة النفاقية من قلة تعظيم حرمات الله.

المؤمن يعظم الله تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الحج)

وقال تعالى:

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾(الحج- ٣٠)

وقال تعالى:

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ (الفتح)

---

[1] البخاري

ولو لم يخرج أحدنا من هذه الدنيا إلا بتعظيم صادق الله تعالى فإنه يُرجى له الخـــير عند الله، كالحديث المتفق عليه في الذي طلب من أولاده أن يحرقـــوه وينـــسفوه ويذروه في الريح وقال ((يا رب خفتك وخشيت ذنوبي)).

15) بغض المؤمنين وتشويه سمعتهم

فكما أن المؤمن يكره الكفر والفسوق والعصيان فإن المنافق يغيظه رؤية الفضيلة والطهر والاستقامة، لأنها صفات تحول بينه وبين أن يصبح المجتمع نهبا لشهواته ومطامعه. ومن هنا يكره المنافق الدعاة والمصلحين الذين يدعون الناس إلى هذه القيم.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق. فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله))[1] . وقال:

((آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار))[2] .

وهكذا من طعن في جيل الصحابة بدعوى الانتصار لآل البيت فهو ممن وقع في هذه الصفة النفاقية.

ولذا فإنك ترى المنافق يعمل جاهدا على تنفير الناس عن المؤمنين:

– تارة بحرمان الناس من منافع دنيوية إن هم أقبلوا على الدعاة وتأثروا بدعوتهم:

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (المنافقون)

– وتارة بالتشكيك في نوايا المؤمنين. ففي الحديث المتفق عليه عن أبي مسعود: (لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل–أي نحمل على ظهورنا بالأجرة لنكتسب ما نتصدق به– فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا (أي: المنافقون): مرائي، وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا: إن الله لغني عن صاع هذا. فنزلت:

---

[1] صحيح البخاري ح3499 (12/ 136) ، صحيح مسلم ح110 (1/ 220)

[2] صحيح البخاري واللفظ له ح16 (1/ 28) ، صحيح مسلم ح108 (1/ 218)

﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ ﴾ (التوبة)

– وتارة بالاستهزاء بالمؤمنين ورميهم بصفاتٍ المنافقون أوْلى الناس بها، كما فعلوا في غزوة تبوك فيما روته التفاسير عن عبد الله بن عمر أن رجلا قال في غزوة تبوك: (ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء). فقال رجل: (كذبت! ولكنك منافق. لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم). فبلغ ذلك رسول الله ونزل القرآن. فتعلق المستهزئ بحقب ناقة رسول الله والناس يرمونه بالحجارة وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب...فتأمل كيف أن هذا المستهزئ وصف المهاجرين بأوصاف هم أبعد ما يكون عنها، بل هي أوصاف المنافقين، من كذب وجبن وحرص على الدنيا وملء البطون. ولاحظ تعليله: (إنما كنا نخوض ونلعب)...أي: إنما قلت هذا الكلام للتسلية والفكاهة فقط!

فما الآية التي أنزلت؟

﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ ﴾ (التوبة) ...فمع أن الرجل لم يستهزئ إلا بالمهاجرين، إلا أنه استهزأ بهم لدينهم، فاعتبر الله تعالى ذلك استهزاء بالله تعالى و آياته ورسوله وحكم عليهم بقول بعدها:

﴿ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ ﴾(التوبة– ٦٦)

– وتارة بالافتراء على المؤمنين ونسج الأكاذيب حول سيرتهم، كما فعلوا حينما طعنوا على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لينالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُنفروا الناس عنه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ (النور)...

وهو عبد الله بن أُبَي زعيم المنافقين.

وكما قيل: (فعندما يعجز العدوّ عن المواجهة المباشرة يعمد إلى حبك الشائعات، وترويجها وإشاعتها ليستطيع من خلال ذلك توجيه ضربة نفسيّة إلى المجتمع، وكذا بلبلة الرأي العام، وإشغاله بالتوافه وصرفه عن القضايا المهمة والمصيرية. إن سلاح الشائعات من الأسلحة المدمرة التي يمكن أن تستخدم في تشويه سمعة الأفراد الصالحين، وإبعاد الناس عنهم)

ويبدو أن كثيرا من أفعال المنافقين هذه ناتجة عن حسد المؤمنين...لما رأوهم مطمئنة نفوسهم واثقة خطاهم يقتربون بمرور الزمان من وعد الله بالجنة التي لا زال لدى المنافقين احتمال بوجودها!

فاغتاظ المنافقون لما رأوا المؤمنين أعلى منهم وتمنوا لو أنهم شاركوهم في كفرهم ليشاركوهم في المصير المجهول لديهم:

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ (النساء- ٨٩)

ولا يزال المنافقون في أيامنا يشوهون سمعة الدعاة والمصلحين والمجاهدين...ولا يملك إخواننا الدفاع عن أنفسهم لأن الآلة الإعلامية ليست بأيديهم. فحري بكل مسلم عاقل أن يتمثل قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ (النور)

وقولـــه تعـــالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ (الحجرات)

16) ابتغاء الفتنة

إن المنافقين استخدموا طريقة فرعون في ادعاء أن المصلحين أهل فتنة وفساد حين قال في نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام:

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ (غافر)

والحق أن المنافقين هم أهل الفتنة المفسدون:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (البقرة)

يريدون توهين المسلمين والفتّ في عضدهم ليفشلوا وتذهب ريحهم:

﴿ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ ﴾ (التوبة- ٤٧)

والمشكلة أنهم بلغاء ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡ ﴾(المنافقون- ٤) ...فيتأثر بهم المجتمع الإسلامي: ﴿ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ ﴾(التوبة- ٤٧)...بيان جميل...بل حتى أشكالهم جميلة. ففي الحديث الذي رواه مسلم عن زيد بن أرقم أنه رضي الله عنه قال: (كانوا رجالا أجمل شيء)...لكن معادنهم معادن سوء...

بل إن المنافقين يعملون أعمالا ظاهرها الخير وخدمة الدين لكنهم ما يهدفون منها إلا إلى تفريق المؤمنين:

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ (التوبة)

فهم بنوا مسجدا...لكنْ ما بنوه إلا لكل خبيثة: ضـــرارا وكفـــرا وتفريقـــا وإرصادا!... ليفرقوا صف المؤمنين وليجتمعوا في مسجدهم على التـــآمر ضـــد المسلمين![1]. فلا يغترَّنَّ مسلم بظواهرهم!

يحرص المنافقون على إضفاء الشرعية على فتنتهم من خلال أهل الخير!:

فقد قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (وجاءوا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيـــه علـــى تقريـــره وإثباته).

لكن الله تعالى فضحهم لرسوله صلى الله عليه وسلم، فلم يُصلِّ في مسجدهم بل هدمه.

ونرى في أيامنا هذه قنوات ماجنة مفـــسدة لا تبتغـــي إلا الفتنـــة...نراهـــا تستضيف داعية يتكلم بما يرقق القلوب ويُدمع العيون...لكن يسبق برنامجه ويتبعه دعايات الفسق وأخبار الكذب. ودعاتنا يحتجون بأنهم لن يترددوا عن ارتياد أي منبر لإظهار دعوتهم الخيِّرة...لكننا نخشى أنهم بذلك يُضفون شيئا من الـــشرعية على قنوات الفتنة هذه، ويميعون المسألة في نفوس عامة الناس، ويكسرون حـــدة استنكار الناس لمنكراتها... أوَمَا ترى وضوح موقف رســـول الله مـــن مـــسجد الضرار، فهو لما علم أن منظومته بُنيَت على السوء لم يقل: أصلي فيه وأستغل أية فرصة لعلي أقلب السحر على الساحر وأفرض مشروعي من حيث ظنـــوا أنهـــم يفرضون مشروعهم... لم يَقُلها صلى الله عليه وسلم. فصاحب الـــدعوة عزيـــز النفس يربأ بدعوته عن أن تُستخدم طعما يُزين به المفسدون باطلهم...[2]

---

[1] راجع سبب نزول الآية من تفسير ابن كثير

[2] أعلم أن المسألة قابلة للاجتهاد بحسب حال تلك القنوات، لكن لا بد للدعاة أن يأخذوا عامـــل إضفاء الشرعية المذكور في حسبانهم

فنسأل الله تعالى أن يوفق الدعاة المصلحين إلى ما يحب ويرضى، وأن يريهم الحق في هذه المسألة ويرزقهم وإيانا اتباعه.

ومثال الفتن التي يبتغيها المنافقون في أيامنا: رفع رايات الوطنية وتقديسها ومحاولة شرذمة المسلمين على أساسها...كل في حدود بلده التي لم يتزل بها وحي من الله عز وجل! وشعاره: (وطننا ومن بعده الطوفان) و(لست أبالي حين يسلم موطني على أي جنب أمة الدين تُصرع) ويقنعون المسلم أن مستقبله وطموحه الشخصي هو أول ما عليه الاهتمام به وليكن بعده في أمة الإسلام من حوله ما يكون... ليأتي اليوم الذي يقول فيه: (أُكلت يوم أكل الثور الأبيض)...

لذا فقد شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم في جريمة التفريق بين المسلمين وتقطيع جسد الأمة على أسس جاهلية بقوله:

((إن الله عز وجل أذهب عنكم عبِّية الجاهلية وفخرها بالآباء. الناس بنو آدم وآدم من تراب: مؤمن تقي وفاجر شقي. لينتهين أقوام يفتخرون برجال إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع النتن بأفواهها))[1] .

فإن ناسا كانوا يتفاخرون بقيم غير قيمة العقيدة...كانتسابهم لآباء ماتوا على الكفر...افتخروا بهم لحسبهم أو ثرائهم وجاههم. فبين عليه الصلاة والسلام أن هذا الفخر يستوجب المهانة على الله بحيث يصبح المفتخر أهون من حشرات تخرج فضلاتها من أفواهها وتسير بها رافعة إياها كأنها مفتخرة بهذه الفضلات. وغاية إثم هؤلاء المفتخرين رفعهم لقيمة لا وزن لها في دين الله، من شأنها أن تشرذم المسلمين لو استشرت...وكذلك في أيامنا كل من يرفع قيمة لا اعتبار لها شرعا تفرق المسلمين فهو في غاية المهانة على الله.

---

[1] رواه أبو داود والترمذي وحسنه، وصححه ابن تيمية والألباني

17) قسوة القلب تجاه القرآن

وهذه الصفة–كغيرها من صفات النفاق–ناتجة عن الشك في الدين:

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ (الإسراء – ٤٦)

وهذه القسوة والاستغلاق عند المنافق تمنعه من تدبر القرآن:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (النساء) ... ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد)

ويالَقسوة قلوب المنافقين...كانوا يأتون مجالس النبي فيسمعون القرآن من فمه غضا طريا نقلا عن جبريل الأمين عن رب العزة جل وعلا...فما ينفعهم سماعه بشيء، ولا يحرك ركام الكفر عن قلوبهم:

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ (المائدة)

بل انظر إليهم وقد خرجوا من عند النبي صلى الله عليه وسلم بعدما سمعوا الآيات والحكمة فسألوا الصحابة ببلاهة: ماذا قال آنفا؟

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ (محمد)

لأنهم لم يفهموا شيئا، أو قالوها على سبيل الاستخفاف وإشعارا بأنهم لم يلتفتوا إلى ما قال رسول الله ولم يعبأوا به.

بل لم يكونوا يستحيون من قسوة قلوبهم:

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ﴾ (التوبة– ١٢٤)

فكأني بهم يسأل بعضهم بعضا باستخفاف: أليس يقول الله أن القرآن يزيد الإيمان؟! ألسنا نرى هؤلاء (أي: الصحابة) يبكون وتعلو هممهم إذا سمعوا القرآن؟! فهل ازددت إيمانا يا فلان؟ فيجيب: لا...فيقول السائل: ولا أنا...

فرد الله على تساؤلهم: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (التوبة)

وتصور معي هذه القسوة في قلوبهم! فالقرآن الذي لو أُنزل على جبل خشع وتصدع من خشية الله لا يزيد المنافقين الظالمين إلا شكا وخسارا!

ولا يَبتعدن القارئ عن الواقع فيظن أن ليس له من هذا الوصف نصيب...فإنا نرى كثيرا من الناس في مطلع يومهم يديرون مذياعاتهم على محطات القرآن...ثم بعدها بدقائق تقل أو تكثر يديرونها على محطات الغناء أو يأتون بأشرطة أكثر طربا! هكذا بلا فاصل! وأمثلهم طريقة يفصل الصوتين بثوان! فمن صوت القرآن إلى صوت الشيطان!

وليسوا في الحالين سواء، ففي وقت القرآن كأنهم تركوه لطرد الشياطين ولا يصل إلى قلوبهم، وفي وقت الشيطان تهتز القلوب وتتفاعل! فهل زادتهم آيات الله إيمانا و وجلت قلوبهم وكانت لهم شفاء ورحمة وكانوا بها يستبشرون، كما وصف القرآن المؤمنين إذا سمعوا القرآن؟ أم أنها قلوب تتأثر بصوت الشيطان وإذا تليت آيات الرحمن كانت كالحجارة أو أشد قسوة؟

وأقسى قلبا من هؤلاء من يُكثرون قراءة القرآن، بل وقد يتخذونها مهنة، دون أن ينفعهم بشيء!

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أكثر منافقي أمتي قراؤها))[1] .

[1] رواه أحمد وصححه الألباني في الصحيحة (249/2) وصححه الأرنؤوط

قال المناوي في شرح هذا الحديث: (أي: الذين يتأولونه على غير وجهه ويضعونه في غير موضعه. ثم قال: وقال عطاء: احذروا القراء واحذروني معهم. فلو خالفت أودَّهم لي في رمانة أقول أنها حلوة ويقول إنها حامضة ما أمنته أن يسعى بدمي إلى سلطان جائر! إلى أن قال المناوي: ولذلك ترى الواحد منهم يتكبر على الناس ويستخف بهم معبسا وجهه كأنما يمن على الناس بما يصلي زيادة ركعتين، أو كأنما جاءه من الله منشور بالجنة والبراءة من النار، أو كأنما استيقن السعادة لنفسه والشقاوة لسائر الناس، ثم مع ذلك يلبس لباس المتواضعين ويتماوت. وهذا لا يليق بالتكبر والترفع ولا يلائمه بل ينافيه لكن الأعمى لا يبصر)[1] .

وهذه الكلمات الذهبية للمناوي وصفت العديد من صفات المنافقين من قسوة قلب مع القرآن وفجور في الخصومة واستعظام الطاعة وأمن من عذاب الله ورياء بالتظاهر بالتواضع...وهذا كله للأسف كما يصف المناوي في أناس قد قرأوا القرآن بل وربما أوتوا نصيبا من العلم...فنعوذ بالله من هذا الوصف.

قال عليه الصلاة والسلام: ((ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر))[2] .

---

[1] فيض القدير

[2] صحيح البخاري ح5007 (48/17)، صحيح مسلم ح1328 (4/ 217)

18) استصغار المعصية واستعظام الطاعة

لما كان المنافق شاكا في الدين فإن أية طاعة يقدمها هي أكبر من حجم إيمانه الضعيف إن وُجد هذا الإيمان إصلا. لذا فإنه يرى طاعته هذه عظيمة...أما المعصية، فهو ليس على يقين تام بعظمة الإله الذي يعصيه، وليس مؤمنا إيمانا جازما بنار يُعذب فيها على معصيته، فيرى معصيته صغيرة وإن كانت الجبال تتفطر منها... ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ (الأنعام- ٩١)

والمنافق في ذلك على طريقة صاحب الجنتين الذي اغتر بهما وقال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ (الكهف)

والآخر القائل: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ﴾(فصلت- ٥٠)

لئن رُددت، ولئن رُجعت...يضمنون الجنة إن وجدت! وهكذا المنافق، يعمل بالقليل من الطاعة ليدخل الجنة إن وجدت، أما أن يكون محياه ومماته لله رب العالمين فلا! وما ينفعه هذا العمل ولا أضعافه ما دام في قلبه شك.

– قال الحسن البصري: (إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة وإن المنافق جمع إساءة وأمنا)[1]

أي أن المؤمن يحسن في أعماله وهو مع ذلك مشفق خائف من عذاب الله. بينما المنافق لا يدع إثما إلا ركبه وهو مع ذلك آمن من النار وقد يتبجح فيقول لك: سأدخل الجنة قبلك!

وتارة يتعلل المنافق في عدم إقلاعه عن المعاصي بأنه يحسن الظن بالله. قال الحسن البصري: (ليس الايمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصَدَّقه العمل. إن قوما

[1] الزهد لابن المبارك، وبنحوه في مجمع الزورائد

أهلتهم اماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا: نحسن الظن بالله. وكذبوا! لو أحسنوا الظن به لأحسنوا العمل)[1]

وأماني المغفرة دون عمل هي مما يُعَيَّر به المنافقون عند ضرب السور بينهم و بين المؤمنين:

﴿ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ ﴾ (الحديد)

– وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه. وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه فقال به هكذا)[2] ... أي: حرك يده فوق أنفه فطارت الذبابة.

وصدق! فكم ترى من أناس يغتابون ويلمزون أو يقولون ما لا يليق بالله تعالى ثم يقول الواحد منهم: (أستغفر الله)، وهو يضحك بسماجة شديدة! كأن استغفاره هذا ينفعه!

– وروى البخاري عن أنس بن مالك أنه قال:

(إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد النبي صلى الله عليه وسلم من الموبقات)...وإن كان أنس رضي الله عنه قال ذلك للتابعين وهم من هُم في الخيرية، فما بالُك لو رأى ما أقحم أهل زماننا فيه أنفسهم من المهلكات وهم لا يعبأون! فالله المستعان.

إن من يقع في هذه الصفة يشابه فُساق بني إسرائيل الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾ (الأعراف– ١٦٩)...

---

[1] تفسير أبي السعود والألوسي

[2] البخاري ح5833(367/19)

فهم يفعلون المعاصي مرة تلو الأخرى ولا يُقلعون عنها ومع ذلك يظنـــون أنهـــم مغفور لهم.

قال الحسن البصري:

(المؤمن من يعلم أن ما قال الله عز و جل كما قال. والمؤمن أحسن الناس عمـــلا وأشد الناس خوفا. لو أنفق جبلا من مال ما أمـــن دون أن يعـــاين، ولا يـــزداد صلاحا وبرا وعبادة الا ازداد فَرَقا. يقول: لا أنجو لا أنجو! والمنافق يقول: ســـواد الناس كثير وسيُغفر لي، ولا بأس علي... يسيء العمل ويتمنى على الله تعالى)[1]

فالمؤمن يعلم أن الله تعالى إذ قـــال: ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾ (النـــساء-١٢٣) ... فهو كما قال، وإذ قـــال: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨ ﴾ (الزلزلة) ... فهو كما قال. فلا يأمن من عذاب الله إلا إذا عـــاين الجنة يوم القيامة. ولا يمكن له أن يصل إلى مرحلة يقول فيهـــا: إن لي عنـــد ربي للحسنى بما أسلفتُ من رصيد خير فيستهين بالمعصية، بل لا يزداد إلا خوفا... أما المنافق فيقول: أنا أحسن من غيري، فالناس الذين يعملون بمعاصٍ أكبر من معاصي كثير. هم في النار وأنا في الجنة...غفل عن قوله تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٩ ﴾ (الزخرف)

وهذه الصفة من استصغار الذنب واستعظام الطاعة منتشرة جدا في أبناء المسلمين في أيامنا هذه...حتى إنك لتحس أن عامتهم يَمُنون على الله تعالى بطاعاتهم ﴿ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ ﴾ (الحجرات)...وَلْيُفتش كل قارئ نفسه ألا يجدها أرجى في الجنة من الصحابة وآمن من النار منهم؟!

---

[1] الزهد لابن المبارك

وسنرى كيف أن هذه الصفة تقود من في قلبه نفاق إلى أن يعرض عن التوبة.

حال المؤمن:

سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله تعالى:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (المؤمنون)....:

(أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر؟). فقال عليه الصلاة والسلام: ((لا يا بنت الصديق! ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلي وهو يخاف أن لا يُتقبل منه))[1].

وروى البخاري أن إبراهيم التيمي قال: (ما عرضتُ قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبا)..أي يُكذب قولي عملي، أو يكذبني من رآني في دعوى الإيمان. فهكذا المؤمن...مهما عمل من طاعة فإنه يعلم أنه مقصر في حق الله عز وجل، ومهما صغرت معصيته فإنه يعلم أنها كبيرة لأنها عصى العظيم سبحانه وتعالى.

[1] رواه ابن ماجه و صححه الألباني في الصحيحة (161/1)

19) الإعراض عن التوبة

قال الله تعالى واصفا المنافقين ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ ﴾ (المنافقون)... ولا غرابة، فإذا كان المنافق قليل الأدب مع رسول الله كما رأينا، ومستصغرا لمعصيته لأنه ما قدر الله حق قدره، فلماذا يتوب؟!

بل وانظر إلى مدى إعراضهم واستهانتهم بمغفرة الله فيما صح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من يصعد الثنية، ثنية المرار– مكان عند الحديبية– فإنه يحط عنه ما حُط عن بني إسرائيل))...أي يُغفر له.

قال جابر: فكان أول من صعدها خيلنا، خيل بني الخزرج. ثم تتام الناس[1]. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((وكلكم مغفور له، إلا صاحب الجمل الأحمر))...وهو منافق لم يكترث بهذه الفرصة لمغفرة الذنوب. قال جابر: فأتيناه فقلنا له: (تعال يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم). فقال: والله! لأن أجد ضالتي أحب إلي من أن يستغفر لي صاحبكم. قال: وكان الرجل ينشد ضالة له[2].

فانظر إلى هذا الضال الذي كان أضل من البهيمة التي يبحث عنها كيف أنه يفضل أن يجد بهيمته على أن يستغفر له رسول الله!

---

[1] أي تتابعوا في الصعود إليها

[2] مسلم 4986 (326/13)

وقال تعالى واصفا المنافقين:

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (التوبة)...فالمصائب تقعرهم تباعا ومع ذلك لا يتوبون.

وهذه الصفة هي إحدى ما يُعَيَّر به المنافقون بعد ضرب السور[1] إذ يقال لهم: ((وتربصتم))....أي: أخرتم التوبة من وقت إلى وقت، كما قال ابن كثير.

ألم تكن الفرصة متاحة لهم في يوم من الأيام؟:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ ﴾ (النساء)

وهكذا كل من أخر التوبة فليعلم أنه شابه المنافقين في هذه الصفة...فمن الناس من إذا نصحته في ترك معصية قال لك: (ادع الله أن يهدينا يا شيخ)!...يشبهون في ذلك سَلفهم:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ (الفتح-١١)... لو أنهم كانوا صادقين في إرادة المغفرة لأقلعوا عن الذنب. لذا قال تعالى: ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

وفي المقابل صفة المؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (الأعراف)

[1] راجع ما نقصده بضرب السور تحت عنوان: خطر النفاق على النفس

20) تعريض النفس للفتن

فأول ما يقال للمنافقين بعد ضرب السور: ﴿ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ (الحديد-14)

فمن في قلبه نفاق يحوم حول المعاصي كالذباب يحوم حول النتن، وهو يتعذر بأن ما يفعله اختلف العلماء في حكمه وليس حراما قطعيا، ويتعذر لنفسه وللناس بأن قصده طيب...كمن يكثر مخالطة النساء من غير محارِمِه بأعذار شتى...وقلبه في ذلك يضطرب ويشتهي...

ومن أجال بصره فيما حرم الله، كالذين يتابعون المسلسلات والأغاني الفاسقة ثم بعد ذلك تفسد قلوبهم فلا تسمع منهم إلا ما دل على حب المعصة واستقباح شعائر الله وأحكامه...فإن مثل هؤلاء لا يُظن بهم، وقد فتنوا أنفسهم، أن يكونوا قبل ضرب السور ممن يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ليعينهم على عبور الصراط!

أما المؤمن فحازم يسد على نفسه الذرائع لئلا تقع في المحذور.

21) الفجور عند الخصومة

((أربع من كن فيه كان منافقا خالصا...وإذا خاصم فجر))[1]

الفجور صفة ذميمة، تُعَرَّف على أنها الكذب والميل عن الصدق والعدول عن الحق وارتكاب المعاصي![2] ...وكلها صفات شر تجتمع لدى من فيه نفاق إذا خاصم.

والفجور من ثمار الشك في الآخرة...فصاحب الخصومة إن كان يؤمن بالآخرة فإنه هادئ النفس لأن ما لا يأخذه من حقه في الدنيا يبقى رصيدا مُدَّخرا له عند ربه سبحانه وتعالى في وقت تشتد فيه الحاجة. أما من ضعُف إيمانه بالآخرة فإنه لا يستحضر هذا المعنى فيخشى فوات حقه ويريد أن يشفي غيظه فيبالغ في القصاص ولا وفاء عنده لأي ودٍّ كان بينه وبين خصمه.

وأكثر ما نرى هذه الصفة في زماننا في أكثر مشاكل الأزواج وفيما يكون بينهم قبل وعند الطلاق، فلا يرعون للعشرة حقا ولا يمتثلون قول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ ﴾(البقرة- ٢٣٧)

---

[1] متفق عليه، سبق تخريجه

[2] المنجد في اللغة

22) إخلاف عهد الله

المنافق وكأنه "يجس النبض" لأنه يشك في الله، وإن آمن بوجوده فتصوراته عن الله هزيلة...هو لا يحسب حسابا لعقوبة الآخرة، وكل ما يهمه ألا ينقص نعيم الدنيا. فيخلف عهد الله رويدا رويدا، فإن لم يؤثر ذلك على مصالحه الدنيوية اطمأن وسدر في غيه...كحال يهود الذين كانوا يسيئون الأدب مع رسول الله ثم: ﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ ... فما لم يُعاجَلوا بعقوبة فهم مطمئنون...عقَّب تعالى بقوله:

﴿ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٨ ﴾ (المجادلة)

وَلْيتذكر كل في نفسه، كيف كان يُلح على الله تعالى بالدعاء ويعاهده إن آتاه شيئا من الدنيا أو جنبه شرا كان محدقا به ليكونن من الصالحين وَلَيجتنبن ما هو عليه من معصية...ثم يتكرم اللطيف سبحانه عليه ويعطيه ما طلب...فما هي إلا أيام تقل أو تكثر ويعود المعاهد إلى ما كان فيه من معاصٍ...خسة طباع ولؤما...نسأل الله العفو والعافية...فهذا العمل من أهم أسباب نشوء النفاق في القلب. قال تعالى:

﴿ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦ فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ٧٧ ﴾ (التوبة)...فعلوها مرة فكان جزاؤهم نفاق القلب إلى يوم يلقون الله الذي أخلفوا عهده...فكيف بنا إن فعلناها مرارا ومرارا! نسأل الله العفو والعافية وأن يعاملنا بكرمه وحلمه سبحانه.

23) اللحن في القول

قال الله تعالى واصفا المنافقين: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ﴾ (محمد-30)

فهم يبثون سمومهم بكلام منمق ظاهره حب الدين والدفاع عنه وباطنه التشكيك والطعن. فعندما تنابح الدنماركيون لينالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يضيره وهو صاحب الشرف الرفيع والمقام المحمود، خرج من المنافقين من يقول:

(لا للاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم. ولكن للنقد)!

وعندما انطلقت حملة المقاطعة للبضائع الدنماركية نعق منافق آخر فقال:

(إنها حملة فوضوية تعمق الكراهية والحقد في نفس الآخر وتغذي الإرهاب)![1] .

– فالأول يُظهر احترام النبي والاعتراف بنبوته والدفاع عنه...لكنه ما أراد إلا العبارة الأخيرة التي يدعو فيها إلى نقد النبي المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

– والثاني يُظهر أنه متفق مع المسلمين في اعتبار ما قام به الدنماركيون كراهية وحقدا، لكنه في واقع الأمر أغاظه أن يُقاطَع أسياده، وعزَّ عليه أن يسميهم كفارا مع ما قاموا به! بل اعتبرهم (الآخر)، واستغلها فرصة ليطعن على الجهاد والمجاهدين فسمى جهاد الكافرين والمنافقين بالإرهاب، على طريقتهم النفاقية الخارجية المعروفة في الذل مع الكافرين والاستئساد على المسلمين.

ولا يَقُل قائل إنه لا يجوز لنا إساءة الظن بمن يقول مثل هذه الأقوال ولا الحكم على نيته...فإن مثل هذا القول ناتج عن الجهل بقاعدة الأخذ بالظاهر. فالأخذ بالظاهر كما أنه يقتضي إحسان الظن بمن أظهر خيرا، فإنه كذلك يقتضي الحكم بالسوء على من تكلم بكلام نفاق كهذا...وإلا لَمَا جعل الله تعالى كلامهم هذا علامة فارقة لهم علينا أن نكشفهم به: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِ﴾.

---

[1] حكى هذه الأقوال الشيخ علي القرني حفظه الله في شريطه (أرعد وأبرق) ورد على أصحابها الرد الذي يناسبهم

24) نسيان الله تعالى

واعجباً من نسيان بعض الناس ربهم سبحانه وتعالى...فما تعلموا ولا عملوا بما يقربهم إليه سبحانه. ولا ترى أحدهم يسأل عن الحلال والحرام. وهذه صفة المنافقين:

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ (التوبة- ٦٧)

... فلا يبالي الله تعالى في أي واد هلك أحدهم.

وجزاؤهم أن يُنْسِيَهم الله تعالى أنفسهم فلا يعملون بما ينفعهم في معادهم:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (الحشر)

وقال تعالى واصفا أكثر الناس:

﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ (الروم)....قال ابن كثير: أي أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها. فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الاخرة كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة. قال الحسن البصري : والله لبلغ من أحدهم بدنياه أن يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلي[1].

وهذا حال كثيرين من أهل زماننا تراه جادا مجتهدا مشمر الذراعين حاسرا عن الساقين في أمر دنياه، فإذا سألته: أتصلي؟ قال: لا!... فنعوذ بالله من غفلة القلوب.

---

[1] تفسير ابن كثير

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله لـــه ألم أجعل لك سمعا وبصرا ومالا وولدا وسخرت لك الأنعام والحرث وتركتك ترأس وتربع، فكنت تظن أنك ملاقي يومك هذا؟ قال فيقول: لا فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني))[1] ... أي: يتركه الله في العذاب.

[1] رواه الترمذي وصححه، وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير (**457/28**)

خاتمة

أما بعد، فقد ظهرت لنا صفات المنافقين واستبانت سبيل المجرمين ... بَثَّها الله تعالى في كتابه وفَصَّلَها على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾(الأنفال- ٤٢)... وكل يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها. فَلْيَخْتر امرؤ لنفسه أيريد أن يكون ممن قال تعالى فيهم:

﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ (التوبة)... نَجَس مُستقذَر لا يُرفع من أرضه! وذلك في حياتهم...

وليختر امرؤ لنفسه أيريد أن يكون على شاكلة قوم بلغ من مقت الله لهم أنه لم يعطهم فرصة أخرى ليطهروا سِجلهم الأسود، لَّما علم سبحانه أن نفوسهم أخس من ذلك:

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (التوبة)

وليختر امرؤ لنفسه أيريد أن يكون من أهل المهانة عند قبض الأرواح:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ (محمد)

وليختر امرؤ لنفسه أيريد أن يكون على شاكلة أقوام لم يرتض الله تعالى لنبيه أن يصلي عليهم ولا يدعو لهم عند مماتهم:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ (التوبة- ٨٤)

وَلْيَخْتر امرؤ لنفسه أيريد عند التمايز أن يكون ممن قال تعالى فيهم:

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ﴾ (الأنفال- ٣٧)... هكذا! ركام من النفوس الخبيثة...أخلاط من المنافقين والكافرين تُعامل يوم القيامة كالقمامة فتُكب في النار![1].

فمهانة في الدنيا، ومهانة عند نزع الروح الخبيثة، ومهانة للجيفة التي لا يُصلى عليها، ومهانة عند الحساب...ثم بعد ذلك الذل الأطول في الدرك الأسفل!

فيا أخي المسلم ويا أختي المسلمة...حذارِ من صفات المنافقين! فوالله لواحدة منها مَهْلَكة، فكيف إذا انضمت صفات منها عديدة في شخص واحد!

فاحذر أيها العاقل! فما ترضى لنفسك أن تكون على شاكلة أقوام قطع الله أمل كل أحد في أن يغفر لهم:

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾(التوبة- ٨٠)

ولا يغرنَّك كثرة أموالهم وعددهم، فما هي إلا زيادة نكال عليهم:

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

ففي حياتهم لا يزيدهم مالهم إلا غما وهما، فهم إن أنفقوا في وجوه الخير أنفقوا كارهين، وإن ابتُلوا في أموالهم أو أولادهم انقلبوا جزعين هلعين...ثم يؤكدها الله تعالى بعد تفصيل صفاتهم مرة أخرى بقوله:

---

[1] أشار إلى شمول هذه الآية المنافقين كتاب التحرير والتنوير ج1 ص1757

﴿ وَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَأَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَتَزۡهَقَ أَنفُسُهُمۡ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ٨٥ ﴾ (التوبة)

وَلْيتذكر كل منا أن النفاق الذي فصلنا القول فيه ليس ظاهرة انقرضت، بل هو داء العصر الأخطر...وأن الصحابة خافوا على أنفسهم من النفاق...فلسنا نحن أولى بالأمن منهم. وَلْيُعِد القارئ قراءة فصل:

(حقائق خطيرة عن النفاق يجهلها عامة الناس) في أوائل الكتاب

وليتذكر كل منا أن الله تعالى ما خلق الخلق وأرسل الرسل إلا ليتمايز الناس. قال تعالى:

﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ٧٢ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٣ ﴾ (الأحزاب)

قال ابن قتيبة: أي: عرضنا الأمانة ليظهر نفاق المنافق وشرك المشرك فيعذبهما الله ويظهر إيمان المؤمن فيتوب الله عليه... أي: يعود عليه بالرحمة والمغفرة إن حصل منه تقصير في بعض الطاعات[1] .

وباب التوبة مفتوح...قال تعالى بعدما ذكر أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار:

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦ ﴾ (النساء)

[1] تفسير البغوي

فنسأل الله تعالى أن يطهر قلوبنا من النفاق ويجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وأن يحشرنا في زمرة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

وختاما: من قرأ هذا الكتاب فاستفاد منه في تنقية إيمانه فَلْيَدْعُ لي بخير، وليتذكر أن المَلَكَ يقول: (آمين، ولك بمثل). ومن وجد فيه خطأ في المبنى أو المعنى فلا يبخل علي بنُصحه فالمؤمنون نَصَحَة والمنافقون غَشَشَة. ويُرجى إرسال الملاحظات والأسئلة على موقع الفرقان:

www.al-furqan.org

– كما ننصح بمراجعة مدارج السالكين لابن القيم ج1 ص347 ففيه كلام نفيس في وصف المنافقين

– وأود أن أشكر عمي المهندس محمد موسى قـــنيبي على مراجعته الكتاب وتنبيهي على بعض التعديلات فيه...فجزاه الله خيرا.

انتهيت من كتابته في 23 رمضان 1429 هـــ

الراجي عفو ربه: إياد عبد الحافظ قنيبـــي

تعريف بالمؤلف:

د. إياد عبد الحافظ قـــنيبي

خطيب متطوع بمسجد مصعب بن عمير في منطقة تلاع العلي

دكتوراه في علم الأدوية من جامعة هيوستن الأمريكية...مارس البحث العلمي في مركز تكساس الطبي

يعمل حاليا في جامعة العلوم التطبيقية كمحاضر وباحث في كلية الصيدلة

مشرف موقع الفرقان: www.al-furqan.org